# مسلمون وأقباط

حاتم أبوزيد





# مسلمون وأقباط

كتبه

حاتم أبوزيد

أول كتاب يتحدث عن
تفاصيل
تحول شعب مصر للإسلام



# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، أما بعد

فإذا أرد الله نشر فضيلة طويت سلط لها لسان حاسد، فقد قام طائفة من قومنا فزعموا أن أهلينا السابقين أنكروا اعتقادهم عشية دخول الفتح الإسلامي لمصر؛ من أجل دراهم معدودة، في حين أنهم هم هم قبل لحظات من هذه الفعلة كانوا يتحملون أشد أنواع الأذى حتى الموت؛ من أجل تلك المعتقدات التي أنكروها فور دخول الإسلام. وهم بهذا قد تناولونا بالطعن فينا وفي أجدادنا، إذ وصفوهم بصفات الدنائة والخسة. سواء كان ذلك عن قصد منهم وسوء طوية؛ أم كان بغير قصد.

ولما لم تكن تلك الفرية بالنافذة لهم من أجل تحقيق غرضهم، هيئ لهم خيالهم زعما آخر فراحوا يقولون : بأننا لسنا أهل ذلك الوطن ؛ وأنَّا من نسل أولئك الذين فتحوا البلاد، وهو أمر ليس به أدنى عيب ولا



مذمة، ولكنه في الحقيقة ليس بالحقيقة، بل إن هؤلاء يحق أن يقال فيهم: رمتني بدائها، وانسلت.

ولما كانت كلتا المقولتين من الكذب المبين، ولكن بعد الزمن قد يؤدي لاندراس الحق وشيوع الأباطيل، فكان من الواجب التصدي للأراجيف ودحض المفتريات وكشف زيفها. إذ أن شعب مصر كانوا أهل رشد، فأحبوا دينهم الجديد، وصاروا مدافعين عنه ناشرين له، بغض النظر عن مدى صحة ما أحبوه وارتضوه ديناً، وخطأ ما تركوه ورذلوه. فبحثنا في التاريخ وحقائقه وليس في العقائد.

فقد يقاتل الإنسان من أجل مبدأ غير صواب، ولكنه صاحب مبدأ، يظل مخلصاً له. فإن تبين له الصواب في غيره مال إليه وتركه، فمثل هذا الإنسان إنما هو مخلص للحق يدور معه حيث دار؛ وهكذا كان أجدادنا وأهلونا، لم تكن بهم خسيسة فترفع، أو حاجة فتدفع. فقد آمن منهم في ساعة واحدة أكثر من مائتي ألف كانوا سحرة لفرعون أول النهار، فلما تبين لهم الحق صاروا من أتباع موسى عليه السلام في آخر النهار، وآثروا الله والدار الآخرة. ولا يعلم في أمة من الأمم جماعة مثلهم أسلمت في ساعة واحدة غيرهم.






وفي الواقع فإننا لم نجد بين المؤرخين من عني بالتدوين والكشف عن تفاصيل حقيقة تحول شعب مصر للإسلام؛ ولذا لن نجد أمامنا إلا اللجوء إلى الأخبار غير المباشرة والتي يمكن للقارئ اللبيب أن يستنبط منها الحقيقة على وجهها الصادق، وهي وإن كانت طريقة يكتنفها الكثير من الصعوبات إلا أنها أصدق. إذ أن الإحصاءات السكانية، والمخطوطات البردية والتي تحوي الرسائل الإدارية وكذا الرسائل الخاصة المتبادلة بين الأفراد وبعضهم البعض وعقود البيع والإيجارة والزواج والعتق ونحو ذلك من الوثائق، بجانب مرويات المؤرخين تُكوِّن في مجملها صورة للحالة الاجتماعية والدينية التي كان عليها الشعب أقرب للصدق من أقوال المؤرخين المجردة، التي ربما لا تخلوا عن الهوى أو على الأقل تكون متأثرة بثقافة المؤرخ وميله الديني والفكري على عكس الدلائل الأخرى والأخبار غير المباشرة فإن مدلولاتها تكون أصدق وأكثر صوابا لتجردها من الهوى، وانتفاء المؤثرات السالفة عنها.

وكما أن تلك الطريقة هي الأصدق فربما أيضا تكون الوسيلة الوحيدة لكشف وجه الحق بعد أن تعرض شعب مصر لغمط حقه



وحقيقته من قبل المؤرخين النصارى، الذين تفتقد كتابتهم إلى الحياد العلمي لما شابها من تعصب وتحامل واضح ضد كل من ليس على مذهبهم أو طريقتهم حتى وإن كان غير مسلم.

وعلى الرغم من هذا فقد كان الاعتماد في الأعم الأغلب على كتبهم، حتى لا نتهم بالتحيز والميل في النتائج التي توصلنا إليها. والثانية أن هذا أقوى وأبلغ في إقامة الحجة على المخالف وأقطع لسبيل الاعتذار.

والثالثة أن المؤرخين المسلمين قد تأخر تدوينهم لتأريخ الفتح الإسلامي لمصر إلى ما بعد قرنين من الزمان تقريبا من فتحها، فلذا لم تحظ كثير من الروايات التفصيلية عن حقيقة إسلام أهلها بالذكر إذ أنها كانت لكثرتها ولمشابهتها بغيرها من الوقائع والأحداث بشتى البلدان التي فتحها الإسلام، عدت بمثابة الأمر العادي والطبيعي ومثل تلك الأمور عادة لا تحظى بالتدوين.

وغرضنا من وراء دفع تلك المفتريات بيان فضيلة شعبنا في المقام الأول، ثم النصيحة لشركاء الوطن من أهل الكتاب بكشف ثقافة التشدد ودعاوى الفتن التي تحرص على نشر مفاهيم مغلوطة مفادها

أنهم أصحاب حق مهضوم، وأنهم محتلون من قبل المسلمين. إذ أن تلك المفاهيم الخاطئة هي خطر على أصحابها من قبل أن تكون خطراً على غيرهم. لما تحدثه من أثر سلبي في قلوب مصدقيها، يظهر في شعور دائم بالاضطهاد، يُنْتِج إحساساً بالإحباط والفشل، يظهر دائما في مسلك عدواني تجاه الآخر أيّاً كان حاله أو انتمائه الفكري أو العقدي. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه

حاتم أبوزيد





# الباب الأول

الفصل الأول : يشتمل على عرض للإحصاءات السكانية تكشف عن اختيار الملايين من شعب مصر الإسلام فور دخول البلاد.

الفصل الثاني : يحتوي على أخبار تفصيلية تؤكد ما ذكر إجمالا في الفصل الأول، كما تثبت بالدليل القاطع أن المصريين قد شاركوا في فتح البلاد وتحريرها.

الفصل الثالث : عرض لبعض أقوال المؤرخين التي تؤكد اختيار المصريين للإسلام بصورة جماعية .



# بدء الإسلام في مصر

البدايات المشرقة تئول دائما إلى نهايات عظيمة؛ وهكذا كان أمر الإسلام بمصر منذ البدء، فالإحصاءات السكانية التاريخية والتي يستند بعضها إلى وثائق رسمية والبعض الآخر يستند لأقوال المؤرخين تشير إلى ظهور قوي و قبول طوعي للإسلام بمصر منذ اللحظات الأولى.

فإن ما يقرب من أربعين بالمائة من الشعب المصري قد دخل في الإسلام منذ اللحظة الأولى لدخول عمرو بن العاصي ـ رضي الله عنه ـ أرض مصر. وأما النسبة الباقية من سكان البلاد هي التي بقيت على حالها ومن ثَم طولبت بدفع الجزية.

فيذكر الشماس منسي، وكذا يعقوب نخلة وغيرهم من المؤرخين أن إجمالي الجزية التي حصلها عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ كانت اثني عشر مليونا، وأن مقدارها كان دينارين، وأنها فرضت على الرجال وأعفي منها الشيوخ، والنساء، والولدان الذين دون ثلاثة عشر عاما[1].

---

١ )تاريخ الكنيسة القبطية لمنسي ص (٣٠٧)، تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ص (٥٦).

قال ابن عبد الحكم: «اصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم، وليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء»[١]. ومن هذا فإن إجمالي من كانوا يدفعون الجزية هم ستة ملايين، بخلاف النساء والشيوخ والأطفال. وقد صرح بهذا يعقوب نخلة[٢] وغيره.

ويذكر ابن عبد الحكم أنهم : «أحصوا عدد القبط يومئذ؛ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الدينارين، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس، وكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة»[٣].

وعليه فإن الستة ملايين هم مجموع السكان الرجال غير المسلمين الذين ناهزوا الحلم، ولم يبلغوا الهرم في هذا الوقت، الذين وجبت عليهم

---

(١) فتوح مصر لا بن عبد الحكم (١/ ٨٠).

(٢) تاريخ الأمة القبطية ص (٤٤).

(٣) فتوح مصر (١/ ٨١).



الجزية. فإذا أضفنا عليهم الذين أعفوا من الجزية حصلنا على إجمالي عدد السكان غير المسلمين.

ويقدر القس منسي سن المعفين من الجزية بأنهم مَن دون الثالثة عشر من العمر[١]. ويمكن أن نعتبر الشيخ الهرم، هو من جاوز الستين، أو الخامسة والستين، إذ أن المسألة متعلقة بالقدرة البدنية، فلربما يعجز من هو دون ذلك السن بكثير فيعفى، وربما يظل من هو فوق هذه السن متمتعا بحالة بدنية وجسمانية حسنة فلا يعفى، ولكن هذا السن نقدره على وفق العادة الجارية لله في خلقه[٢]. وهؤلاء بالإضافة للنساء هم السكان غير المسلمين الذين لم تجب عليهم الجزية والذين يشكلون مع الملايين الستة التي دفعت الجزية مجموع السكان غير المسلمين بالقطر المصري لا كل سكان مصر حال الفتح الإسلامي. وبمعرفة إجمالي عددهم وإجمالي تعداد الشعب المصري في ذاك الوقت يمكن أن نعرف بسهولة عدد مسلمي مصر في ذاك الحين.

---

(١) تاريخ الكنيسة ص (٤٠٢).

(٢) وكانت هذه أيضا هي السن التي ترفع فيها ضريبة الرأس (الجزية) عن الشخص في أيام الرومان، وحتى زمن الفتح الإسلامي.

ونستطيع القول أن السكان غير المسلمين الذين لا يطالبون بالجزية (النساء، والأطفال، والشيوخ) يعادلون في أحسن الأحوال مرة ونصف من عدد دافعي الجزية، أي يمثلون تسعة ملايين، وهو أمر تدل عليه الإحصاءات السكانية المتتابعة التي كانت تجري في القطر المصري.

فعندما نرجع للوراء قليلا نجد أن الدولة الرومانية كانت معتادة على إجراء مسح سكاني، لجميع ولاياتها، وكان هذا المسح، يسمى "اكتتاب"، وكان يتم كل أربعة عشر عاما. وكان يتم لكل شخص في محل إقامته. ولهذا كان يتوجب على كل غائب أن يعود إلى بلده أو إلى مقاطعته. هذا على حسب ما جاء في إنجيل لوقا[١]. الذي أشار إلى هذا المسح السكاني ووصفه بأنه الأول، وهو الذي ولد فيه المسيح ـ عليه السلام ـ. وهو يوافق العام السادس الميلادي طبقا للتقويم المعمول به الآن. وقد أشار سفر أعمال الرسل أيضا إلى استمرارية هذا الاكتتاب فيقول : (بعد هذا قام يهوذا الجليلي في أيام الاكتتاب)[٢]. أو ربما هو نفس الاكتتاب الذي ولد فيه المسيح. وهذا هو الراجح لدي، ولكن

---

(١) لوقا الإصحاح الثاني.

(٢) أعمال (٥: ٣٧).



تحقيق هذه النقطة لا يعنينا هنا.

وعلى أية حال فإن أوراق التعداد المكتشفة في مصر تؤكد أن التعداد كان يجري فيها بانتظام كل أربعة عشر عاماً في الفترة ما بين عامي ٩٠ م حتي ٢٥٨م. وأن أحصاء السكان كان يتم لهم في موطنهم الأصلي. ففي عام ١٠٤ - وفقا للتقويم الميلادي المعمول به الآن - أصدر الوالي فيبيوس ماكسيموس بيانا يعلن فيه أنه بمناسبة الإعداد لإجراء إحصاء عام للسكان يجب على كل من ترك موطنه لأي سبب من الأسباب أن يعود إليه ثانية. وهذا البيان محفوظ في المتحف البريطاني بلندن.(١)

وكانت من أغراض هذه الإحصاءات التي تقوم بها الإمبراطورية تقدير الضرائب، ولذا كانت تتم كل أربعة عشر عاما لأن من بلغ تلك السن كانت تفرض عليه الجزية (ضريبة الرأس)، فأرادوا معرفة المواليد الجدد وإحصاءهم لإدخالهم في النظام الضريبي تباعا؛ ولهذا أيضا كانت تقام لكل شخص على حسب موطنه، وكانت تجعل عقوبات قاسية على من يدلي بمعلومات أو بيانات خاطئة. وكانت تحسب فيه نسبة الذكور

---

(١) انظر الإمبراطورية الرومانية ص (١٧٠) لمصطفى العبادي. و دائرة المعارف الكتابية باب عدد تعداد.

للإناث بالمائة، وسن الزواج، وغير هذا. وجاءت فيه نسبة الذكور للإناث، هكذا ١٠٢.٣ ذكر لكل ١٠٠ أنثى، أي أقل من الواحد الصحيح بقليل[١]. وأيضا فإن نسبة الأطفال دون الثالثة عشر، والشيوخ الذين هم فوق الستين، هي أقل من الواحد الصحيح، مقارنة بمن يقعون في وسط تلك المرحلتين العمريتين.

ويؤكد هذا ماجاء أن الإسكندرية كان بها نصف مليون، في حين أن عدد الرجال بها كان يزيد على ثلاثمائة ألف، كما ذكر ديودور الصقلي وكان هذا التقدير في عام ٦٠ قبل الميلاد. أي أن نسبة النساء والأطفال إلى الرجال أقل من الواحد الصحيح[٢].

فإن كانت هذه الإحصاءات قبل الفتح الإسلامي بزمن فإن الأمر لم يختلف كثيرا في زمن الفتح؛ فقد ذكر المقريزي عن ابن لهيعة أن عمرا ـ رضي الله عنه ـ : « جبى جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار، لأنه وجد ثلاثمائة ألف من أهل الذمة، فقدر عليهم دينارين دينارين، فبلغت

---

(١) Bagnall,139

(٢) انظر الإمبراطورية الرومانية ص (١٥٧).



ذلك»[١] وقد قدر عـدد سكان الإسكندرية في القرن السادس بستمائة ألف[٢]، وعلى هذا فإن نسبة النساء والأطفال والشيوخ مجتمعين إلى نسبة الرجال الواجب عليهم الجزية هي واحد لواحد[٣]، وهو أمر مقبول عندما تعلم أن الرعاية الصحية في تلك المجتمعات في هذا الزمن لم تكن على قدر عالٍ مما كان يؤدي لا رتفاع نسبة الوفيات في الأطفال،

---

[1] (١) المواعظ والاعتبار ص (١٩١) للمقريزي.

(٢) تاريخ مصر في العصر البيزنطي لصبري أبوالخير ص(١١١) نقلا عن .Diehl,Op.cit.,p.480

(٣) وأما ما جاء في رواية ابن عبد الحكم أنه: "بقي من بقي من الأسارى ممن بلغ الخراج فأحصي يومئذ فكان ستمائة ألف سوى النساء والصبيان." فإنما عنى به من بقي من الروم خاصة الذين استوطنوا مصر حديثا بالإضافة لبقية الجند دون سائر السكان، فإنما روايته كانت تتحدث عن هؤلاء، ولذا وصفهم بالأسارى، وذكر أن جند عمرو كان يريدون تقسيمهم كفيء، وهذا لا يكون مع أهل البلاد وإنما يكون مع المقاتلة، ويؤكد هذا قول المقريزي: «وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مئتا ألف رجل ، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن". هذه واحدة. وأما الثانية فلعل الرقم الحقيقي هو ستون ألفا، لا ستمائة، وبهذا تلتئم مع رواية المقريزي. خاصة وأننا نلحظ من خلال الإحصاءات أن عدد سكان الإسكندرية كان يتميز بالثبات تقريبا بخلاف سائر أقاليم مصر، فعلى قول ديودور الصقلي أنه كان عدد سكانها ستمائة ألف وذلك قبل الميلاد بستمائة سنة، ثم قدر عدد سكانها في عام ٣٨ بعد الميلاد بنصف مليون، ثم قدر في القرن السادس بستمائة ألف.

وانخفاض متوسط العمر بصفة عامة لدى السكان، وأما على حسب إحصاءات الرومان فإن تلك النسبة تزيد عن هذا، وربما تعادل أقل من مرة ونصف، ليصبح عدد الملزمين بدفع الجزية (هم الرجال القادرون) إلى غيرهم من (النساء، والأطفال، والشيوخ) واحد إلى واحد ونصف أو أقل، أي أنه من كل خمسة أشخاص هناك اثنين من دافعي الجزية يقابلهم ثلاثة ممن تسقط عنهم. وبالتالي فلو قمنا بضرب الستة ملايين دافعي الجزية في مثليهم ونصف لحصلنا على إجمالي عدد السكان غير المسلمين سواء كانوا دافعي جزية أو الذين لا تجب عليهم لكونهم من النساء والأطفال والشيوخ؛ إذن يمكن أن نقول أن مجموع السكان غير المسلمين وقت الفتح الإسلامي لمصر هو خمسة عشر مليونا، أو أقل. لكن هل هذا هو كل عدد سكان مصر وحسب؟.

يجيب على هذا السؤال القس منسي فيذكر في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية: «إن مجموع الأقباط إبان الفتح الإسلامي كان قد بلغ أربعة وعشرين مليونا تقريبا»[1]. أما الأثري ستالي لينبول فيذكر أن سكان

---

(١) تاريخ الكنيسة القبطية ص (٤٠٢).



مصر قد بلغوا ثلاثين مليوناً[١]. إذن هناك ما يزيد عن تسعة ملايين على الأقل وفقا لِمَا ذكره القس منسي لم يطلب منهم جزية، ولم يدفعوها، وهؤلاء التسعة ملايين يشكلون نسبة تقترب من ٤٠٪ من شعب مصر في ذلك الزمن. فلماذا لم تطلب الجزية من أربعين بالمائة من المصريين؟ وإن كان هؤلاء قد تحولوا للإسلام فمتى وكيف حدث هذا؟ وما كان دورهم في الفتح الإسلامي؟ هذا ما يجيبك عليه الفصل التالي.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) تاريخ مصر في القرون الوسطى ص ١٩.

# شعب مسلم

المتأمل فيما بين سطور العديد من المراجع التاريخية المسيحية، والإسلامية على حد السواء، يرى فيها ما يدل على أن الملايين من أهل مصر قد دخلوا في الإسلام، فور أن أعطيت لهم حرية الاختيار.

فيقول يوحنا النقيوسي: «وعندما وصل المسلمون مع المصريين الذين ارتدوا عن المسيحية، كانوا يستولون على أملاك المسيحيين الفارين ويسمون خدام المسيح أعداء الله» [١].

فتأمل قوله: «المصريين الذين ارتدوا عن المسيحية». فهؤلاء المصريون أصبحوا ماذا؟ مسلمين؟!!؛ نعم. وليس هذا وحسب بل قد انضموا إلى صفوف جيش عمرو.

أما ما حكاه من مسالب فهو نفسه قد نفاها بقوله :« وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما ـ سلبًا أو نهبًا ـ وحافَظ

(١) النقيوسي ص (١٩٧)





عليها (أي الكنائس) طوال الأيام» [١]. وقد أثبتت المخطوطات البردية التي نشرها جروهمان وغيره عدم وقوع تلك النقائص، بل أيدت ما قاله النقيوسي من أن المسلمين لم يأخذوا شيئًا ما سلبًا أو نهبًا.

ففي إحدى الوثائق البردية: أن المسلمين حين أرادوا طعاما كتبوا بما أخذوه إيصالا على أنفسهم ليخصم من الجزية. وهذا الإيصال محرر في شهر جمادى الأول سنة ٢٢ هجرية، وقد ذكر أدولف جروهمان عدة وثائق بردية أخرى تفيد هذا المعنى ثم علق عليها قائلا: «إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر.» [2]

ولكن إن سلمنا بصحة ما ذكره القس من أن المصريين الذين أسلموا كانوا يفعلون هذا، فهذه ردة فعل طبيعية نتيجة ما عانوه من إكراه وتقتيل واضطهاد؛ إذا أن مصر السفلى (الوجه البحري)، كان بطش السلطة الرومانية، ومن يدينون بمسيحيتها ظاهرا قويا نافذا، حتى إن مؤرخيهم يثبتون أنه لم يبق في تلك البلاد بما فيها الإسكندرية العاصمة في ذلك الوقت، أي قس أو راهب يتبع المذهب الأرثوذكسي،

---

[1] (١) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ص (٢٢٠).

(٢) انظر أوراق البردي العربية الجزء (١،٣)، وكذلك أقباط ومسلمون ص (٦٠، ٦١).

سوى راهب واحد كان يتخفى في زي نجار[1]. هذا بخلاف ما أصاب أهل البلاد من الوثنيين والمسيحيين الأريسة من اضطهاد على أيدي النصارى لا يتسع المقام لتفصيله؛ وذلك بعد أن دانت الإمبراطورية الرومانية بالنصرانية، وأتخذتها ديانة رسمية له في نهاية القرن الرابع.

على كل فما يعنينا في هذا المقام أن القس يوحنا أثبت لنا إسلام آبائنا منذ اللحظة الأولى التي خُليَ فيها بينهم وبين رغباتهم، وتركوا واختيارهم الحر، بل ليس هذا وحسب فقد تحولوا إلى مقاتلين مجاهدين من أجل تحرير بقية أهليهم وبلادهم؛ ولهذا كان فتحا لا غزوا.

## مسلمو سيناء

هكذا جاءت البداية فور دخول عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أرض مصر، فإذا بالراهب يوحنا أحد رهبان دير سيناء يخلع رداء الكهنوت، ويعتنق الإسلام، ويتسلح بسيف، وينضم للجيش المسلم.[2] وقد وصفه النقيوسي في كتابه بأنه خلقدوني.

---

(١) هو الراهب أجاثوا الذي خلف البطرك بنيامين بعد وفاته. انظر تاريخ البطاركة .

2 (٢) تاريخ مصر للنقيوسي ص (٢٢٢).




وكذا انضم معه غيره من المسيحيين إلى صفوف المسلمين، وصاروا مقاتلين معهم. فـ:«كان عدد جنود عمرو يتزايد كل يوم بانضمام القبائل البدوية التي كان يلتقي بها في طريقه». على حسب ما يقول يعقوب نخلة[1]

## مسلمو الفرما والسويس

وعند الفرما وهي أول مدينة لقي فيها المسلمون قتالا ، استمر شهرا انضم له أعدادا من أهلها فلم ينقص عدد الجيش إذ لحق به من البدو من عوض عليه الذين قتلوا في المناجز الأخيرة أو لقد زاد عليهم.[2]

ويقول المقريزي : «وأقبل عمرو حتى إذا كان بجبل الجلال نفرت معه راشدة، وقبائل من لخم».[3] وجبل الجلال هذا يقع بمنطقة العين السخنة. وهذه القبائل راشدة ولخم ليست قبائل عربية[4] ، وإن كان

1 (١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ص (٣٩).

2 (٢) فتح العرب لمصر لألفرد بتلر ص (٢٤٦).

3(٣) المواعظ والاعتبار – (١ / ٣٦٣).

4 (٤) انظر الانتصار لواسطة عقد الأمصار (٤/ ٥) لابن دقماق مؤرخ الديار المصرية.



يوجد في العرب قبائل تسمى بلخم. وذكر ابن عبد الحكم والسيوطي وغيرهما أن : «أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً»[١] ، ولكن بتلر في كتابه فتح العرب لمصر أنكر هذا الأمر، ووافقه في هذا سائر مؤرخي النصارى ، وليس هنالك من مبرر لهذا الإنكار، وهم يقرون بانضمام تلك الفئام من المصريين للجيش المسلم، إلا أن يكون مبررهم أنه لا يوجد نصراني تعاطف أو ساعد أو رحب بالمسلمين فهذا نقرهم فيه ، ولكننا نقول أن هؤلاء لم يكونوا نصارى ، وإنما صاروا مسلمون مع بقاءهم على هويتهم المصرية ، إلا إن كان بتلر ومن تبعه قد شاء نزع هويتهم بعد إيمانهم فهذا مسلك عنصري لا يعني إلا أصحابه والقائلين به.

## مسلمو دمياط

ويحكي يعقوب نخلة أيضا :« أن حاكم دمياط قتل أحد الوطنيين لما نصحه بالمصالحة مع المسلمين، فغضب ابن ذلك الرجل وأسلم، ثم حشد جيشا من أقباط أهل البرلس والدميرة وغيرهما من البلاد المجاورة وأمد به المسلمين وحاربوا أهل تانيس؛ هذا بعد أن ساعد المسلمين في

---

[1] (١) فتوح مصر وأخبارها (١ / ٦٧)، حسن المحاضرة (١/ ٣٧).

فتح دمياط».[1] ويحكي لنا المقريزي هذه القصة فيفيدنا بعدد الجيش الذي انضم لصفوف المسلمين، ويذكر: أن هذا الرجل كان قد عكف على دراسة الإسلام والنظر فيه ثم أسلم، ولما رأى أن المسلمين أبطأ عليهم فتح تنيس جمع جيشا قوامه ألفان من الناس، من البرلس، ودميره، وأشمون طناح، وجهزه ولحق بأمداد المسلمين الذين بعث بهم عمرو، وسار حتى التقى بالعدو وأظهر الشجاعة وحسن البلاء، وقتل بيديه اثني عشر رجلا من فرسان تنيس، ومازال يقاتل حتى قتل في ذلك اليوم رحمه الله. يقول المقريزي: «وقبره لا يزال معروفا يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة» [2].

وقد بذل ألفرد بتلر جهده لتفنيد هذه الواقعة، ولكنه في النهاية لم يملك إلا أن يذعن بصدقها، إلا إنه عز عليه أن يكون الرجل مصريا، فوصفه بكونه روميا[3]. بخلاف ما وصفه به يعقوب نخلة بأنه أحد الوطنيين.

---

1 (١) تاريخ الأمة القبطية ص (٥٤).

2 (٢) المواعظ والاعتبار ص (٢٥٩).

3 (٣) فتح العرب لمصر ص (٣٧٦) ألفرد بتلر.



ولعل الذي حمل بتلر على ذلك القول أن هذا الفارس الهمام وصف بأن أباه كان خال المقوقس، ولكن الراجح أن المقوقس من أهل مصر واسمه جريج بن مينا، والنصارى الأرثوذكس يقولون: إنه كان ملكاني المذهب، والملكانيين كسعيد بن البطريق يقولون: إنه يعقوبي المذهب[1].

ومما يؤكد لك تعصب بتلر، وحيادته عن الإنصاف العلمي الذي ينبغي أن يكون عليه المؤرخ ما أوردته بتشر في كتابها تاريخ الأمة القبطية (٢/ ١٣٨) من أن :« كل الرومانيين المستوطنين في القطر المصري هجروا منازلهم وربوعهم ولجئوا إلى الإسكندرية؛ ليحتموا فيها». فانظر قولها :«الرومانيين المستوطنين ... هجروا منازلهم وربوعهم».ثم انظر لما مر آنفا عن القس يوحنا النقيوسي :« المسيحيين الفارين». ثم انظر لما سيأتي بعد من قول القس:« أن السكان الأجانب هم الذين أسلموا». وتأمل كيف أن المؤرخين لهذه الفترة قد بذلوا وسعهم في غمط مسلمي مصر وأهلها حقهم؛ علاوة على إلصاق المسالب بالفاتحين الإسلاميين.

ثم إن كان إسلام من أسلم من أهل مصر لدنيا كما يزعمون، فهل

---

(١) نظم الجوهر لسعيد بن البطريق ص (٣٠٢).

يترك ذلك الرجل الرومي سلطان بلاده الذي كان قائما، ويخذل جيش بلاده الذي كان مستحوذا، ويحاربه، بل ويترك دينه الذي كان هو الدين الرسمي في البلاد في هذه اللحظة، فهل هذا مسلك أصحاب الدنيا، الذين يبيعون دينهم هربا من دينارين؟!. وتأمل قوله :«إنه كان معه ألفين من الناس»، فهل هؤلاء كانوا من الروم أيضا؟!!. وقد بلغ عدد هؤلاء المقاتلين المتطوعين نصف الجيش الذي دخل به عمرو ـ رضي الله عنه ـ أرض مصر ابتداءً.

## مسلمو سمنود

كان ما سبق عند تنيس؛ ولكن هذه الفرق المصرية التي كانت تئوب إلى جيش الإسلام لم تقتصر على بلد من البلدان أو قرية من القرى، ولكنها عجت بها أرض مصر شرقا وغربا، فيقول ألفرد بتلر: «والتقى الجمعان (أي المسلمون والروم) على كثب من سمنود، ودارت الدائرة على المسلمين، وعلى من كان معهم ممن أسلم من النصارى، وقتل من هؤلاء وأولئك خلق كثير» [1].

(١) فتح العرب لمصر ص (٢٩٥).

ويستفاد من هذا أمرين: الأول أن المصريين قد أسلموا، وقاتلوا الروم إلى جانب إخوانهم من الفاتحين.

الثاني: أن قوله: "وقتل خلق كثير" وكذا قول النقيوسي : «وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين ومن معهم» [١]، يدل على أن النقص كان يعتري جيش المسلمين، نتيجة ما يصيبهم، من جراحات وقتلى؛ «فعند مدينة بلبيس جرت معركة حامية بين المسلمين والرومان خسر فيها الرومان حوالي ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير كما قتل من المسلمين عددا ليس بالقليل». [٢] وعلى هذه الصورة كانت تقل أعداد المسلمين باستمرار ؛ حتى أن أبا صلح الأرمني زعم في تاريخه أن عدد المسلمين الذين قتلوا في فتح مصر بلغ اثني عشر ألفا وثلاثمائة ؛ وقد رأه ألفرد بتلر تقدير معتدل[٣]. فإن كان ذلك كذلك ؛ وأخذنا في الاعتبار أن عدد

---

(١) تاريخ مصر ص (٢١٠).

[2] (٢) وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص (٥٦).

[3] (٣) على الرغم من أن هذا القول يصب في صالح ما نقول به، لكننا نراه تقدير غير معتدل، وغير منطقي ؛ إن كان يعني به الذين قتلوا من الجيش المسلم الذي أتى للفتح ، ولعل أبا صلح وقع له قول الكندي : أن عدد الذين جرت أسهمهم في حصن بابليون كان اثني عشر ألف وثلاثمائة ؛ فظنه عدد الذين قتلوا. أما إن كان يعني أن هذا عدد المسلمين الذين نالوا

جيش عمرو بعد ما وصله من مدد بلغ ستة عشر ألفا، في أقصى الأقوال،ـ فإن بعض المؤرخين يقول: ثمانية آلاف، والبعض يقول: اثني عشر ألفا ـ، ثم علمنا أنه قد فتح الفيوم في مصر العليا وأنه ترك حامية بها، ومن قبلها ترك حامية في الفرما ، و في مدينة بلبيس، وفي حصن بابليون، يقول يوحنا النقيوسي : «ترك عمرو فرقاً وقطعاً عديدة من جيشه في قلعة بابليون»[١]، وكذا لا بد أنه ترك فرقاً وقطعاً من جيشه في شتى البلدان التي فتحها، كدمياط ، وتنيس ، وسمنود ، ومنوف ، ونقيوس، وغيرها من مدن مصر السفلى. ثم على الرغم من كل هذا حصار الإسكندرية بخمسة عشر ألفا؛ بل وأثناء الحصار وجه فرق من جيشه تجاه بعض مدن الوجه البحري التي لم يكن قد فتحها كدمنهور ، وسخا ، فلابد وأن تسأل من أين أتى بكل هذه الأعداد؟.

وهكذا تسأل ألفرد بتلر؛ بل وذهب إلى أن عمراً لم يكن ليجرؤ أن يسير إلى الإسكندرية في أقل من عشرين ألفا، ولكنه يفترض أنه أتته

---

الشهادة في سبيل الله مطلقا سواء أكانوا من جيش عمرو أم من مسلمي مصر الذين شاركوا في تحرير بلادهم فهذا يعد مقبولا.

(١) تاريخ العالم القديم ص (٢١٠).



إمدادات عظيمة ولكن هذا الافتراض لم نر عليه دليل أو أثر عند أي من المؤرخين سواء النصارى أو المسلمون. وما حمله على هذا إلا فرط التعصب ورغبته في ألا يعترف بالحق، وأن المصريين الذين أسلموا بالملايين منذ اللحظة الأولى قد جاهد الكثير منهم لتحرير البلاد وفتحها، فإن كان من بقي من جيش عمرو بعد فتح حصن بابليون كان اثني عشر ألفا وثلاثمائة، كما يقول الكندي :«كان الذين جرت سهامهم في الحصن من المسلمين اثني عشر ألفا وثلاثمائة بعد من أصيب منهم في الحصار بالقتل والموت»[(١)]. ثم أضف بعد هذا ما لحقه من الخسائر في أثناء فتح بقية بلدان مصر السفلى (الوجه البحري) حتى بلغ الإسكندرية في خمسة عشر ألفا أو عشرين. فلك أن تتخيل كم لحق من المصريين بالجيش المسلم؟

وأظنك لن تجد إلا جوابا واحدا؛ هو أن من حارب مع عمرو ـ رضي الله عنه ـ من المصريين ربما كان يوازي جميع من أتى معه، ومن أُمِدَ بهم بعد ذلك، إن لم نقل: إن المقاتلين المصريين قد فاقوهم عددا.

ولعلنا نستطيع القول: إنه لولا من أسلم من المصريين وقاتل الروم

---

(١) الولاة والقضاة للكندي ص( ٩).



لربما ما كان الفتح قد كمل.[(١)] وعلى هذه الصورة تستطيع أن تحكم إن كان هذا فتحاً لمصر أم غزواً لها. ويمكنك القول وفقا لاصطلاحات الناس اليوم: إن الإسلام كان اختيارا شعبيا وثوريا حصلوا به على الحرية العقدية والسياسية، التي حرموا منها دهرا طويلا وردحا من الزمن.

## مسلمو كفر الدوار وبقية الوجه البحري

يقول يوحنا النقيوسي :« تيودور كان رئيس الحكام المقدمين في مصر. وعندما أخبره رسل تيودوسيوس حاكم أركاديا بموت يوحنا رئيس الجماعات ، عاد مع كل أهل مصر والجنود الذين كانوا يعاونونه ،

---

[1] (١) إن افترضنا أن عمرا ـ رضي الله ـ عنه قد سار بجميع من بقي من جيشه ولم يخسر واحدا منهم حتى بلغ الإسكندرية فحصارها بعشرين ألفا، فلا بد أنه قد انضم له من المصريين ثمانية آلاف، أي ما يعادل نصف الجيش المسلم. فإذا أخذت الأمور التي ذكرناها في الحسبان فأترك لك عزيزي القارئ توقع كم المصريين الذين شاركوا في تحرير بلادهم.

ولو صححنا قول أبي صلح الأرمني أن عدد المسلمين الذين قتلوا في فتح مصر بلغ اثني عشر ألفا وثلاثمائة ؛ والذي رأه ألفرد بتلر تقدير معتدل ؛ فينبغي لأي صاحب عقل أن يقر بأن الملايين من المصريين الذين أسلموا قد انضم منهم آلاف مؤلفة وأن هؤلاء هم الذين قامو بتحرير بلادهم بعد ألف عام من احتلال إغريقي وروماني وبيزنطي.

وسار إلى لوقيون ، وهي جزيرة وخاف من انتقاض أهل هذه المدينة ، لئلا يدخل الإسلام ، ويستولوا على شاطئ بحر لوقيون»[(١)] .

ولوقيون هي لوقين من القرى القديمة بمركز كفر الدوار بالقرب من الإسكندرية ، وأطلق عليها جزيرة لأنها كانت في ذلك الزمان محاطة بالمياه من جميع جهاتها.

ومن الواضح من نص النقيوسي أن القائد الرومي ما كان يخشى على أهلها كما هو مفترض ، إنما كان يخشى من انقضاضهم عليه وفتح بلادهم للمسلمين. وهذا كان هو الحال في سائر بلاد مصر السفلى ؛ فيقول يوحنا النقيوسي : « وكان بين أهل الوجه البحري خصومة شديدة، وانقسموا قسمين : قسما انضم إلى تيودور ، وقسما آخر أراد أن ينضم إلى المسلمين . وفي الحال نهض قسم على آخر ، ونهبوا أموالهم وأحرقوا بلادهم».[(٢)] يقول ألفرد بتلر : «ولسنا ندري إذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقاً من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسي . على أننا نرجح الرأي الأخير». لا ندري لما رجح الأخير وهو الذي

---

[1] (١) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ص (١٨٨). وفتح العرب لمصر لبتلر ص (٣١٢).

[2] (٢) المصدر السابق ص (٢٠٧).

مافتأ يذكر في كتابه بأن النصارى على الرغم مما أصابهم من بلاء على أيدي الرومان كانوا ما بين كاره للعرب المسلمين ، أو محايد يقف من الفريقين موقفا سلبيا، ثم هو الذي يذكر في كتابه أن المصريين لم يكن عندهم طموح سياسي أو ولاء لبلدهم وأن أقصى ما كانوا يرجونه هو الحرية الدينية وتخفيض الضرائب ، فهل عوامل ترجيحه للأخير هو الرغبة في عدم الإقرار بالحق وأن المصريين حين أسلموا بذلوا أنفسهم في تحرير بلادهم. وأنهم هم الذين كانت تنبض قلوبهم بالولاء والمحبة لوطنهم ، فلذا أصبح عندهم الطموح السياسي والرغبة المطلقة في التحرر.

## مسلمو الفيوم

ولنكمل المسير مع مسلمي مصر الأوائل؛ ففي أثناء حصار بابليون انضم للمسلمين طائفة من أهل الفيوم. يقول ألفرد بتلر : « يلوح لنا أن العرب لقوا شيئا من المساعدة في ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق، فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها مينا، وأخرى من الأزرق يقودها قزمان، تعبران النهر ليلا إلى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على

ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو رسوها إلى جانب الباب الحديدي، فكانت هذه الغزوات تؤذي مصلحة الحصن أذى كبيرا وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم في النهر»[١].اهـ . وهؤلاء لا بد أنهم كانوا قد أسلموا لسببين:

أولهما أن الحزبين الأخضر والأزرق كانت بينهم عداوة شرسة وحروب ضروس تمنعهم من أن يجتمعوا على شيء البتة، وأدل شيء على ذلك أن نفس الحزبين الأخضر والأزرق قد دارت بينهم رحى حرب شرسة أثناء حصار الإسكندرية وبات أمر المدينة وسقوطها لا يعنيهم[٢]، فما الذي جمعهم على حرب الروم؟ إنه الإسلام الذي ألف بين قلوبهم.

الثاني: أن المسلمين لا يمكن أن يعتمدوا عليهم قبل أن يسلموا لقوله صلى الله عليه وسلم : «إنا لا نستعين بمشرك». ويتملكنا العجب أكثر، ويقطع بأمر إسلامهم عندما نرى أن بعض الروايات التاريخية تذكر أن المسلمين ظلوا لا يعرفون مدينة الفيوم لمدة عام، وأنها لم تفتح

---

(١) فتح العرب لمصر ص (٢٩٣). وانظر أيضا تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ص (٢٠٥).

2 (٢) انظر فتح العرب لمصر ص (٣٣٤) ، وتاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ص (٢٠٧).

إلا بعد فتح حصن بابليون، أي أن هؤلاء الذين قدموا من الفيوم حتى قصر الشمع لمعاونة المسلمين ومهاجمة الحصن جاءوا طواعية، وكانوا يعرفون الإسلام والمسلمين من قبل أن يحتك المسلمون بهم بقتال أو غيره. وستعرف بعد قليل كيف تعرف هؤلاء على الإسلام وآمنوا به.

وثم أمر آخر يقطع بإسلامهم وهو أن مؤرخي النصارى يتفقون على أن القبط كانوا بمنأى عن القتال تماما؛ فيقول الراهب أنطونيوس الأنطوني : «نستطيع أن نؤكد أن موقف الأقباط من العرب الغزاة كان سلبيا بمعنى أنهم لم يتعاونوا معهم ولم يقفوا ضدهم»(١)

ويقول ألفرد بتلر: «فإن القبط لم يكونوا في شيء من القتال ولا الجيوش ، وكان الاضطهاد في مدة السنوات العشر (يعني : اضطهاد المقوقس البطرك الملكاني، وحاكم مصر ) قد شطر مذهبهم وفرقهم ، فكان منهم من ذهبوا أفراداً وجماعات فهربوا إلى الجبال والكهوف أو أووا إلى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة في الصعيد . وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والإسكندرية فقد اضطروا إلى الدخول في مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئاً ما كان في قلوبهم من كره لما دخلوا فيه».

---

[1] (١)وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص (٦٢).

ويضيف قائلا : «وعلينا أن نبين بيانا لا شك فيه أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النضال ، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه ، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه قد أذلهم قيرس وأرغم أنوفهم . فليس من الحق في شيء أن يقول قائل إن القبط كانوا يستطيعون أن يجتمعوا على أمر أو ينزلوا إلى القتال أو يصالحوا العرب»[(١)] .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[1] (١) فتح العرب لمصر ص (٢٨١).





# يدخلون في دين الله أفواجا

ويصف لنا يوحنا النقيوسي ذلك التيار الهادر من إقبال المصريين على الإسلام فور دخول عمرو بن العاص رضى الله عنه لمصر بقوله : «وانضم إلى الغزاة الكثيرون من سكان مصر الأجانب الذين أتوا من الأقطار المجاورة واعتنقوا دينهم». كذا يقول القس؛ ولكنه لم يخبرنا من هم سكان مصر الأجانب، هل يعني بهم الروم، أم الإغريق، أم اليهود؟!!. الذين هم كانوا العمود الفقري والمكون الأساسي للمسيحيين بمصر؛ إن هذا مما يدعو للأسى والأسف على الأمانة العلمية التي ينبغي أن يتصف بها المؤرخ، خاصة وأنه كان معاصراً أو قريب العهد بالأحداث والوقائع. أم أنه يرى أن المسيحية الأرثوذكسية والوطنية مترادفان، وأن من انتحل ملة أو مذهبا غيرها تسحب منه الجنسية، وينفى عنه انتمائه.[1] وهل مينا، وقزمان أسماء أجنبية؟

---

[1] (١) على ما يبدو أن ذلك هو تعريف المواطنة والانتماء لدى القس، فمن ليس على مذهبه فهو غير جدير بشي، وعلى ما يبدو أن نصارى اليوم يسيرون على دربه.

إن هؤلاء الأجانب كما يقول القس الأرثوذكسي هم الذين فروا والتجئوا إلى الإسكندرية، وكما نقلنا لك عن بتشر آنفا، وهم الذين لما تم الصلح بين المسلمين وبين حاكم الإسكندرية على التسليم(١)، وأن يرحل من بها من أجناد الروم، ورأى هؤلاء السفن ترحل بالجنود

[1] (١) هذا هو فتح الإسكندرية الأول وكان صلحا، وكان في السنة الثالثة من دخول عمرو بن العاص لمصر، ثم بعد عامين وفي ولاية عبد الله بن سرح كاتب سكان الإسكندرية الذين كان أغلبهم من الروم الإمبراطور الروماني قسطانز وهو حفيد هرقل، فأرسل لهم أسطولا بحريا بقيادة مانويل فاستولوا على الإسكندرية وقتلوا حاميتها المؤلفة من ألف جندي، وهرب بنيامين البطرك الأرثوذكسي من الإسكندرية بعد أن كان قد خرج من مخبأه لما أتاه كتاب الأمان من عمرو بن العاص، وثارت قرى بلهيب وسليطس، وسخا، وسكانها كانوا أيضا من الروم، وكانوا من أصحاب المذهب الخلقدوني، فأعاد الخليفة وقتها عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عمرو لمصر لقيادة جيشها ومحاربة الروم الذين نقضوا العهد، فأمكنه الله عز وجل منهم، وقتل مانويل وطرد الروم، وأخمد ثورة الثائرين، وهذا هو الفتح الثاني للإسكندرية ، وكان عنوة لا صلحا. وبهذا يمكن توجيه ما ورد من قول عن عمرو رضي الله عنه:« لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر علي عهد ولا عقد». فإنما عنى به أولئك الناقضين للعهد المتآمرين مع الروم. وكذا قوله لحاكم إخنا : «إنما أنتم خزانة لنا، إن زاد علينا زدنا عليكم» حيث إن حاكم إخنا هذا كان من الذين كاتبوا الروم بأخبار البلاد يستنفرهم للقدوم. وعلى الرغم من هذا فقد أحسن إليه عمرو ولم يقتله وإنما أخلى سبيله، ولما قيل له لماذا لم تلحق بالروم ذكر أنه يخاف أن يقتلوه. فتأمل الفارق.

والمدينة تخلو، أتاهم الحنين لديارهم التي تركوها، وطلبوا من حاكم الإسكندرية أن يتوسط لهم لدى عمرو ليسمح لهم بالرجوع إلى بلادهم التي فروا منها. فأي سكان أجانب يعني القس المؤرخ، الذي كان حاضرا في زمن الفتح؟، ومما يؤكد لك تعصب القس، وبعده عن الأمانة العلمية فإنه يصفهم بأنهم من أتباع خلقدونيا، أي المذهب الكاثوليكي، وهو بهذا يؤكد لنا أن مصطلح قبطي كان عنده مصطلحا طائفيا ضيقا، فلا يطلقه إلا على أصحاب المذهب المسيحي الأرثوذكسي وفقط، ثم يساويه بعد ذلك بالمصرية، فكل من ليس على مذهبه فهو ليس بقبطي وبالتالي ليس بمصري في نظره.

يقول النقيوسي :« إن المسيحيين المارقين أصحاب مذهب مجمع خلقدونيا، هم الذين أسرعوا إلى اعتناق الإسلام ، لا أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة».

ولكنه لما لم يستطع إنكار أن المصريين ممن انتحلوا ملته ومذهبه قد أسرعوا إلى الإسلام أيضا شرع في تناولهم بالسب والقذف. فيقول عنهم : «المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحية وانضموا إلى عقيدة هذا



المفترس»[1]. ويقول أيضا القس المهذب: «قوم ارتدوا عن دينهم المسيحي ودخلوا في دين البهائم، وكان هؤلاء المسلمة يتظاهرون بأنهم من أشد الناس في أمر الدين». فهل علم القس ما في قلوبهم حتى يتهمهم بالتظاهر، ثم ما هي تلك المظاهر التي فعلوها حتى يخرجوا في صورة أشد الناس في أمر الدين، لا أظن أن هناك أعلى من الجهاد، والقتال في سبيل الدين كما فعل راهب سيناء من قبل.

ثم يقول القس المحترم : «فإن كثير من المصريين الذين كانوا مسيحيين كذبة، أنكروا العقيدة الأرثوذكسية والمعمودية الحية، وساروا في عقيدة الإسلام أعداء الرب وقبلوا التعاليم ...... » [2].ثم شرع الأسقف المهذب في سبب سافل، هكذا. وإن كنت أظن أن القس ليس هو المسئول عن ذلك السب، ولكنها فعلة المترجم الوقح، الذي أُرَاه تلاعب بالنص كثيرا، ولعله أخفى الكثير أيضا[3].

---

1 (١) النقيوسي ص (١٩٧).

2 (٢) النقيوسي ص (٢٢٢).

3 (٣) تأمل سياق هذا النص « سكان مصر الأجانب الذين أتوا من الأقطار المجاورة » كيف يكونون سكان مصر، وكيف يصفهم في نفس الوقت بأنهم أتوا من الأقطار المجاورة؟ إما إنهم سكان أجانب استوطنوا البلاد كالإغريق والرومان واليهود، وإما إنهم غرباء قدموا

من الديار المجاورة. ولكن الاثنين معا هذا هو العجب. ولا ينقضي الأمر عند هذا وحسب فأنت تجده يصف المسلمين بالسلب والنهب ثم يحدثك بعد هذا بسطور أنهم لم يأخذوا شيئا من أموال الكنائس وأنهم حافظوا عليها، وهكذا تجد الصورة ونقيضها. مما يجعلنا نكاد نقطع بأن كتاب يوحنا النقيوسي قد أصابه قدر كبير من التحريف على وجه القصد والعمد، ليخفي عنا الكثير من الحقائق.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب يقال : إن مؤلفه وضعه بالقبطية، ثم ترجم للعربية. ويقال: إنه ترجم أيضا لليونانية، وإن كان يغلب على ظن الباحث أنه وضع بالعربية وحسب، ومن ثم قام الشماس غبريال بترجمة النسخة العربية إلى الأثيوبية، ثم فقدت أصول الكتاب، ولا ندري لم فقدت، وكيف فقدت، ومن وراء ضيعها؟ ولم يبق مما كتبه المؤرخ يوحنا سوى النسخة الأثيوبية، والتي ترجمها للفرنسية الدكتور زوتنبرج، ومنها طبعت نسخة عربية بعنوان " تاريخ العالم القديم"، وترجمها للعربية أيضا عن النسخة (المخطوطة) الأثيوبية الدكتور الفاضل عمر صابر عبد الجليل، وهي ليست مجرد ترجمة ولكنها دراسة مفيدة متقنة تبين كيف تحقق الكتب ويعتنى بها.

وممن ذهب إلى أن ترجمة يوحنا محرفة ستانلي لينبول في كتابه سيرة القاهرة ص (٤٥). وكذا ألفرد بتلر في كتابه فتح العرب لمصر حيث يصرح في ص (٥١) بأن هناك مواضع منه شوهت فيها النسخة المخطوطة تشويها. ويقول في ص (٢٥١) : «من المؤكد أن بعض فصول الكتاب أقحمت في غير مكانها وأن بعض الجمل قد نقلت من موضعها في بعض الفصول». ويذكر في ص (٢٩٦): «أنه ابتداء من الفصل الرابع عشر بعد المائة فإن ذكر الحوادث في هذا الفصل والفصول التي بعده مضطرب كل الاضطراب مقلوب رأسا على عقب ويكاد يكون إرجاع أخبارها إلى ترتيب صحيح أمرا مستحيلا». والكتاب من قبل الموضع المذكور بثلاثة فصول ابتدأ في التحدث عن الفتح الإسلامي لمصر.

حتى لا يقر بـ "الحقيقة الـمُرَّة" بالنسبة له والتي لا يريد أن يصرح بها و«هي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها؛ إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته»(١). هكذا وصفهم ألفرد بتلر. ولعل من أبرز هؤلاء الراهب يوحنا الذي مر ذكره. والذي تحول ومن معه لمقاتلين لتحرير أنفسهم وبلادهم. كما يؤكد ذلك النقيوسي بقوله: «حملوا السلاح ضد المسيحيين».

ولكن القس أو المترجم أيّا كان لم يخبرنا أي مسيحيين يقصدهم ويبكيهم، هل يقصد الرومان الذين كان لهم ثلاثمائة ألف مقاتل، أم القبط الذين لم يكن لهم ذكر أو شأن في القتال؟.

عموما نحن في هذا المقام ما يعنينا هو إثبات إقرار المخالفين؛ بأن أهل البلاد قد أسلموا بأعداد وفيرة منذ اللحظة الأولى التي خلي فيها بينهم وبين رغباتهم، وتركوا واختيارهم الحر. مما أحيا في قلوبهم الحمية فصاروا على استعداد للموت في سبيل دينهم. كما كانت هي عادتهم.

---

(١) فتح العرب لمصر ص (٤٥٨).

هذه الحرية التي يحكي عنها ألفرد بتلر أنها سمحت لمن تخلى عن مذهبه الأرثوذكسي كرها لصالح المذهب الخلقدوني (الكاثوليكي) أن يعود إليه بعد زوال سلطان الروم، سطوع شمس الإسلام.

ولكنها في ذات الوقت سمحت للمصريين بالتحول للإسلام. يقول بتلر :«ولقد كان أشد خطرا على القبط من كان يخرج منهم إلى الإسلام، وليس من العدل أن يقول قائل: إن كل من أسلم منهم إنما كان يقصد الدنيا وزينتها»[(١)]. فهؤلاء كانوا من الأرثوذكس، إضافة «للأعداد الوفيرة من البدو الذين انضموا للجيش العربي منذ دخوله مصر».[(٢)] وجاء بهامش تاريخ البطاركة أن :«عيون البدو القاطنين بصحراء المنطقة (المراد منطقة عين شمس ، التي كانت تسمى أون أو هليوبوليس ) قد أسرعت فحملت إلى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعهم ويعبئهم للقتال»[(٣)].

فكما ترى الآن أن الرهبان، والبدو، والمسيحيين الأرثوذكس

---

(١) فتح العرب لمصر ص (٤٥٨).

(٢) هامش تاريخ البطاركة لساويرس (١/ ٥٨٤).

(٣) هامش تاريخ البطاركة لساويرس (١/ ٥٨٥).



أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، والمسيحيين الكاثوليك أصحاب مذهب الطبيعتين، والأجانب من الذين سكنوا البلاد واستوطنوها، والوطنيين، كل هؤلاء من سكان البلاد قد أسلموا، وأحبوا الإسلام قبل أن يقال لهم جزية، وقبل أن يتمكن عمرو بن العاص من فتح البلاد، وهؤلاء كما أحبوا الإسلام أحبهم الإسلام، واستوعبهم جميعا.

فقد روى الطبري في تاريخه (٢/ ٥١٣) : أن صاحب الإسكندرية قد عرض على عمرو الجزية على أن يرد عليه الأسرى، فكتب عمرو إلى عمر رضي الله عنه يستشيره، فأمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن خيروا من في أيديكم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه، فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين، فقال: قد فعلت.

قال القاسم بن قزمان، رجل من أهل مصر، عن زياد بن جزء الزبيدي قال : فجمعنا ما في أيدينا من السبايا، واجتمعت النصارى فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية،

فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية، قال: ثم نحوزه إلينا. وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا حتى كأنه رجل خرج منا إليهم. قال: فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم، وقد أتي فيمن أتينا به بأبي مريم عبدالله بن عبدالرحمن. قال القاسم: وقد أدركته وهو عريف بني زبيد، قال: فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه وإخوته في النصارى فاختار الإسلام، فحزناه إلينا ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا، حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفنا كما ترى.

ويذكر بتلر أن : «القبط أخذوا يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية، لما رأوا أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم في كل شيء ، يسهم لهم في الفيء ، ولا يفرض عليهم الجزاء . فكان ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحناً ، وحطم يقينهم باضطهاده »[1]. هذا

---

[1] (١) فتح العرب لمصر ص (٣٠٥).

مقارنة بالنصرانية التي صارت مذهبا رسميا للإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع الميلادي فإنها لم تذب الفوارق بين معتنقيها ، وظل السادة هم السادة ، والعبيد عبيد ، ودافعي الجزية هم دافعي الجزية بغض النظر عن انتمائه العقدي ، والطريف أن الذين يشتكون من الجزية، كانوا يأمرون ويجيزون أخذا الجزية من الشعب المصري في حين كان يعفى منها الرومان والإغريق . وكان شعب مصر يأمر بدفع الجزية للرومان كواجب ديني ففي رسالة بولس لأهل رومية (١٣/ ١٧): (فأعطوا الجميع حقوقهم.الجزية لمن له الجزية.الجباية لمن له الجباية). يقول يوحنا الذهبي الفم[1]: (فإن كان الشخص ملتزم بدفع الجزية إنما هذا لصالحه، لأن الحكام هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه........ هذا ما دفع بولس أن يوصينا لا بالخضوع للحكام فحسب وإنما بالصلاة من أجلهم لكي نقضي حياة هادئة مطمئنة)[2].

*****

---

[1] (١) وهو أحد قديسي الكنيسة القبطية، وكذا سائر الكنائس الأخرى.

[2](٢) من تفسير وتأملات الآباء الآولين- الرسالة إلى رومية ، وسيأتي النص بتمامه في موضعه.

# الباب الثاني

## الأسباب التي ساعدت على سرعة اعتناق أهل مصر للإسلام

الفصل الأول : انتشار الأريوسية بأرض مصر وغلبتها على الفرق المثلثة.

الفصل الثاني : الفرق الغنوصية، وعقائدها التي تنكر الصلب.

الفصل الثالث : النبوءات وأثرها في تحول المصريين للإسلام.





# الفصل الأول

## الصعيد يفتح قلبه للإسلام

هذا في مصر السفلى أما في صعيد مصر فلا يكاد يذكر في التاريخ شيئا عن قتالها للمسلمين، بل يمكن القول بأن الصعيد قد أذعن للمسلمين بغير قتال. وممن أقر بهذا بتلر في كتابه فتح العرب لمصر[ص (٣٧٨)]. أليس هذا يدعو للتساؤل لم؟

والإجابة على هذا التساؤل تأتي عندما تعلم أن مصر كانت حتى نهاية القرن الرابع الميلادي أي قبل الفتح الإسلامي بمائتين وخمسين عاما تقريبا تعج بالمسيحية التوحيدية، وهي التي كان يطلق عليها الأريوسية، بل إن مصر كانت موطن ذلك الدين المسيحي الذي يرفض تأليه المسيح عليه السلام، ويرفض دعوى صلبه، وكان أغلب الوطنيين ينتمي لهذا المذهب. والذي كان يعتبر أصحابه أنفسهم امتداداً لدعوة المسيح عليه السلام وتلامذته، وأنهم امتداد تاريخي وعقدي للموحدين الذين من قبلهم ومنهم المسيحيين الذين كانت عقيدتهم تتميز بتمسكهم بالتوحيد

المجرد، وإنكارهم دعوى تأليه المسيح واعتباره مجرد إنسان نبي كالفرقة الإبيونية المسيحية التي استمرت إلى ما بعد نهاية الربع الأول من القرن الثاني الميلادي، وهي امتداد للفرقة الإبيونية اليهودية التي كانت قبل المسيح عليه السلام، وكان ينتمي لها نبي الله زكريا أبو يوحنا المعمدان الذي هو يحيى الذي قام بتعميد المسيح عليه السلام في نهر الأردن، فقد جاء في لوقا[1] : "وكان أبوه زكريا كاهناً من فرقة أبيّا".

المقصد أن العالم أجمع ومنه مصر قد أفاق في منتصف القرن الرابع الميلادي ليجد نفسه أريوسيا أي مسيحيا موحدا، وأبلغ دليل على ذلك ما يصف به جريجوريوس النيصيصي حال العامة من أن «الجميع في الشوارع والأسواق وفي الساحات وعند مفترق الطرق يتكلّمون فيما لا يفقهون. فإذا سألت أحدًا من الباعة: ماذا أدفع لك؟ أجابك: هو مولود أو غير مولود. وإذا أنت حاولت أن تعرف ثمن الخبز، أجابوك: إن الآب أعظم من الابن. وإن سألت: هل الحمام جاهز؟ سمعت جوابًا: إن الابن جاء من العدم».وظل الأمر على تلك الحال في مصر حتى نهاية القرن الرابع.

[1] (١) لوقا (١: ٥، ٢: ١).

يقول الدكتور حنا الخضري :«كان أريوس كاتبا وشاعرا، فألف بعض الترانيم العقائدية التي انتشرت بين جميع طبقات المجتمع المصري، وسرت العدوى ليس فقط في مصر بل في بلاد أخرى»[1].

وتذكر بتشر أن تأثير أريوس كان شديدا مما جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعم[2].

وعن انتشار هذه الدعوة بين الوطنيين من أهل مصر الأصليين يقول الدكتور حنا الخضري نقلا عن هرنك :« إن تعاليم أريوس انتشرت بسرعة في العهد القسطنطيني بين الوثنيين المتعلمين وأنصاف المتعلمين الذين انضموا إلى الكنيسة في ذلك الوقت».[3]

فلما أن اعتلى الإمبراطور ثيوديوس العرش في نهاية القرن الرابع، وانتحل المسيحية على وفق المذهب التثليثي القائل بتأليه المسيح، والذي كان منشؤه مصر أيضا؛ إلا وبدأ باضطهاد الموحدين في جميع أنحاء الإمبراطورية، ومنها مصر، فلما كان من هؤلاء إلا أن فروا بدينهم إلى

---

[1] (١) تاريخ الفكر المسيحي (١/ ٦٢٣) لحنا الخضري.

[2] (٢) تاريخ الأمة القبطية (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

[3] (٣) تاريخ الفكر المسيحي (١/ ٦٣٧).



الصعيد. فكان فرصة أكبر لنشر المسيحية التوحيدية في صعيد مصر.

وظل الأمر هكذا حتى انقسم المسيحيون المثلثة على أنفسهم في منتصف القرن الخامس حول طبيعة المسيح فدانت السلطة بالمذهب القائل بالطبيعتين؛ ومن ثم قامت تضطهد القائلين بالطبيعة الواحدة الذين سموا بالأرثوذكس، والذين كان منهم بنيامين البطرك الهارب الذي أمنه عمرو بن العاص لما دخل مصر.

فكان الصراع الذي وقع بين المثلثين، حول طبيعة المسيح فرصة لتخفيف حدة الاضطهاد الواقع على الموحدين. ومنحة من الله لهم إذ شغل الفريقان ببعضهم البعض. فمن ثم استطاع الموحدين البقاء بمأمن بعض الشيء؛ بل والدعوة لمذهبهم أيضا. فتقول بتشر: «وقد نبغ في نهاية القرن الخامس طبيب قبطي اسمه اتيوس كان وثنيا ودخل المسيحية واعتنق مذهب أريوس».[1]

وهؤلاء هم الذي يمكن أن نقول في حقهم قول الله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون* وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾.

---

[1] (١) تاريخ الأمة القبطية لبتشر (٢/ ٧٦).

المراد أن مصر كان أغلب أهلها يدينون بمسيحية لا تختلف في عقائدها عما جاء به الإسلام، وظلوا يعيشون بأمان حتى تبدل الحال في نهاية القرن الرابع، ثم صدر في عام ٤٢٨م أمرًا باستئصال الأريوسية وإبادتها بموجب قانون تقرر في المملكة الرومانية. وذلك قبل دخول الإسلام مصر بما يربو على المائتي عام بقليل، إذ كان الفتح الإسلامي في عام ٦٤٠م، ولما كانت العقائد ليست بالأمر الهين الذي يزال بقرار، ويحتاج إلى عشرات المئات من السنين، فإن تلك الطائفة من بقايا أهل الكتب استطاعت أن تتمسك بعقائدها الموافقة لمبادئ الإسلام، وتحتفظ بوجودها في أقصى جنوب البلاد بعيدا عن يد السلطة النصرانية الغاشمة. فلما دخل الإسلام البلاد فاتحا محررا انضموا للمسلمين ، فلذا لم تبق في البلاد الإسلامية تلك الفرق الموحدة ؛ بعكس غيرها من البلاد التي لم يدخلها الإسلام لازالت هناك بقايا لهم بها .

وكذلك فإن هناك من الفرق المسيحية التي كانت أقل عدداً وتأثيراً من الأرايسة كالفرقة النسطورية على سبيل المثال؛ والتي ونالها منذ أول ظهورها الأذى ولم تبلغ من القوة والتأثير الشعبي ما بلغته تلك الطائفة الموحدة، ولم يدن بمذهبها أحد من الأباطرة؛ واستطاعت على الرغم من

كل هذا أن تبقى حتي يومنا هذا؛ فالسنة نفسها قد جرت على الطائفة الأريوسية الموحدة، حتى شاء الله لهم الخلاص من نير الاضطهاد بالإسلام فدخلوا في دين الله أفواجا. سواء كان هذا في مصر أم في باقي بلاد شمال أفريقية أم في الأندلس، فقد قام الإمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي بقتل خمسة ملايين نفس من أجل محاربة المذهب الأريوسي الذي كان سائدا في تلك البلاد.

ويذكر المؤرخ ناسيليف أن الإمبراطور قسطنطين نفسه قد تحول إلى المذهب الأريوسي ممالأة لأفراد شعبه، وذلك بعد نقل عاصمته إلى القسطنطينية، وقد برر الأنبا شنودة بطرك النصارى بمصر كثرة أتباع المذهب الأريوسي، فذكر بأنه بسبب معاضدة الإمبراطور له . وقد ذكر ابن البطريق في تاريخه :« أن أكثر أهل مصر كانوا أريوسيين».

وهكذا كان المذهب التوحيدي الذي يقول بأن المسيح عليه السلام بشرا رسولا هو المذهب الرسمي والشعبي في البلاد ؛ مما حدا بالإمبراطور قسطنطيوس ابن قسطنطين أن يصرح لأسقف روما بأنه : ليس هناك نصر واحد من الذي تحقق لي ولا حتى ذلك الذي لم يكن





متوقعا على ماجنتيوس[1]، يعدل عندي طرد هذا الوغد (يعني أثناسيوس منشأ التثليث وزعيم قانون نيقية) من شركة الكنيسة.[2]

وذكرت بتشر وغيرها من المؤرخين أن تعاليم أريوس كانت قد عمت القطر المصري. وتذكر أيضا أنه في بدء القرن الخامس عم بناء الكنائس للأسقف الأريوسي الموحد، وأن إحداها تقع في مدينة جرجا بصعيد مصر.[3] فلا عجب إذن أن أذعن الصعيد بلا قتال يذكر، حيث إنه كان يعج ببقايا الموحدين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

[1] (١) جنتيوس هذا هو الذي قام بقتل قسطانز إمبراطور القسم الغربي للإمبراطورية الرومانية، وأعلن نفسه إمبراطورا، وطالب قسطنطيوس إمبراطور القسم الشرقي بالاعتراف به وإقرار الأمر الواقع، فوقع بينهم قتال انتهى بانتصار قسطنطنيوس.

[2] (٢) مصر في العصر البيزنطي ص (١٤).

[3] (٣) انظر تاريخ الأمة القبطية لبتشر (٢/ ١٨). ولكن هذا في الغالب غير صحيح حيث أن بداية هذا القرن شهدت اضطهاد أصحاب هذا المذهب. والصحيح أن تلك الكنائس إنما كرست بدءاً من منتصف القرن الرابع وحتى قرب نهايته.

# الفصل الثاني

## كل الطرق كانت تمهد للإسلام

وإضافة لما سبق فقد انتشرت الفرق الغنوصية (الصوفية المسيحية) في جنوب مصر[1]، وهي وإن كانت بها انحرافات عقدية شاذة وخطيرة، إلا أنها في مجملها كانت ترفض فكرة الصلب وتسخر منها، وتقول بأن المصلوب هو شبيه المسيح. ولعل هذا من بقايا ما ورثته عن التوحيد المسيحي.

يدل على هذا مجموعة المخطوطات التي وجدت بالقرب من نجع حمادي بمحافظة قنا التي تقع في أقصى جنوب مصر. إذ أنها لم توجد بمدينة الإسكندرية، أو في بطليمية (سوهاج) أو إرسينوي (الفيوم) أو

---

[1] (١) انظر تاريخ الكنيسة الشرقية ص (٥٤).وكذا مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص (١٣١) لـ آيدرس بل حيث يرى أن المسيحية في مصر كانت تميل بشدة إلى المذهب الغنوصي، كما يرى: "أن هذا هو سبب انتشار إنجيل يوحنا في مصر، ومذهبه عن اللجوس أو الكلمة وإبهامه الصوفي"اهـ.

غيرها من المدن، وإنما وجدت في مدينة بعيدة عن السلطة المركزية ويضعف فيها سلطان أولئك القائلين بالصلب وألوهية المسيح، إذ أن تلك المخطوطات تهزأ من تلك المعتقدات.

ففي بعض ما ورد بمكتبة نجع حمادي القبطية عن موت يسوع المسيح في كتاب (كشف بطرس) **Apocalypse of Peter** يقول الكتاب الذي لا يحتوي على فقرات مرقومة: (قلت ما هذا الذي أراه يا سيدي؟ .. أهذا أنت نفسك الذي يأخذونه؟ ..وأنت الذي تمسكني بقوة؟.. أو من هذا الشخص الذي يضحك سعيداً أعلى الشجرة؟ .. وهل هو شخص آخر الذي يخرقون يداه وقدماه؟

قال المخلص لي: هذا الذي تراه على الشجرة يضحك سعيداً هو المسيح الحي. وهذا الذي يدقون المسامير في يديه وقدميه هو جسده المادي الذي هو البديل يوضع في العار، الذي بقي في شبهه، لكن.. انظر إليه وانظر إلي وعندما نظرت قلت: سيدي .. لا أحد ينظر إلينا، دعنا نغادر هذا المكان).

وفي كتاب آخر بعنوان " المقالة الثانية لست الأكبر" يقول:( كان شخص آخر، آباهم، الذي شرب المرارة والخل، لم يكن أنا، ضربوني

بالقصبة، كان آخر، سيمون، الذي حمل الصليب على كتفه، وكنت شخصاً آخر غير الذي وضعوا إكليل الشوك على رأسه، وكنت أنا مبتهجاً في الأعالي فوق ثروة حاكمهم ونسل خطاياهم ومجدهم الزائف، أضحك لجهلهم).

وفي كتاب آخر بعنوان " مقالة القيامة " فإن المسيح مات كأي شخص آخر ولكن روحه المقدسة هي التي لا يمكن لها أن تموت.

ولك أن تعرف أن هذه الأناجيل التي يعتبرها المسيحيون كتباً مزورة ويطلقون عليها لفظ : "أبوكريفا" أي مشكوك فيه، كتبت بالخط القبطي، لا اليوناني، مما يعني أن المسيحيين من أصحاب اللسان المصري كانت عقائدهم تخالف عقائد مسيحي زمنهم من أصحاب اللسان اليوناني، وكذا مسيحي اليوم الذين يعتمدون على الأناجيل اليونانية لا القبطية. والذين ظلوا بعد الفتح الإسلامي يعتمدون على اللغة اليونانية في الكثير من معاملتهم ونسكهم الديني.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

# الفصل الثالث

## النبوءات تدعو المصريين للإسلام

فضلا على ما تقدم فهناك في غاية الأهمية كان كفيلا بتحول المصريين وشتى الأمم التي كانت بها شعوبا تنتحل المسيحية إلى الإسلام، ألا وهو أن المسيحيين في حقيقة أمرهم كانوا ينتظرون نبيا آخر بعد المسيح ـ عليه السلام ـ ففي يوحنا (١: ١٩-٢١) : (وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت، فاعترف ولم ينكر وأقر: إني لست أنا المسيح، فسألوه ماذا إذاً أنت، إيلياء؟ فقال لست أنا إيلياء، فسألوه أنت النبي؟ فأجاب لا).

وفيه أيضا (١: ٢٥) :(فسألوه وقالوا له: فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي). فدل هذا على أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون ثلاثة : إيلياء المزمع أن يأتي أولا، ثم المسيح، ثم النبي. وقد جاء إيلياء الذي هو يوحنا المعمدان أو يحيى بن زكريا عليهما السلام، وجاء المسيح عليه السلام الذي هو ابن الإنسان، وبقي النبي.





ففي متى (١٧ : ١٢، ١٣) أن المسيح عليه السلام أخبر تلاميذه بهذا قائلا : (ولكني أقول لكم إن إيلياء قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان). فدل ذلك على أنهم كانوا ينتظرون نبيا، وذلك أيضا هو الثابت تاريخيا من خلال ردود هرقل، الذي قال : «أنه سيملك ما تحت قدميه»، وكذا كان قول المقوقس والي مصر وبطركها الملكاني حين جاءته رسالة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم. بل بهذا أيضا تنبأ البطرك بنيامين الأرثوذكسي أو أخبره ملاك الرب بهذا على حسب ما ذكر ساويرس، وتنبأ الراهب صمويل القلموني من دير القلمون بصعيد مصر بنحو ما تنبأ به البطرك بنيامين. كل هذه العوامل قادت المصريين للمسارعة بقبول الإسلام، وعرفتهم به فعلموا أنه حق من قبل أن يحتك بهم المسلمون. وإن هذا لشبيه بما حدث مع النبي ﷺ حين عرض دعوته على أهل المدينة فعلموا أنه النبي الذي كانت تستفتح به يهود عليهم وكانوا ينتظرونه. وكما قال تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾.

فكل من يتأمل كتابات المسيحيين عن تلك الفترة يرى أنهم كان



يسيطر عليهم شعور بأن محمدا ﷺ كان رسولا من عند الله، أو هو على الأقل سوط من الله أرسله عليهم.

فيقول قيدرينوس : «على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ومن لا يخشون الله من القسوس، خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا»[1].

ويقول النقيوسي : «ولكن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين، ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر»[2].

ويقول ساويرس : «وكان الرب يخذل جيش الروم قدامه لأجل أمانتهم الفاسدة».[3]

ويقول ميخائيل السرياني، بطريرك السريان الأرثوذكس في القرن الثاني عشر : «إن إله الانتقام لما رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر، من نهب كنائسنا ودياراتنا، وتعذيبنا بدون أيّة رحمة، فإنما قد أتى من

---

[1] (٤٠) فتح العرب لمصر ص (١٨٧).

[2] (٤٦) تاريخ مصر ص (٢٠٣).

[3] (٣٠) تاريخ البطاركة (١/ ٥٧٦).

مناطق الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الروم ... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم وحقدهم واضطهاداتهم وفظاعاتهم نحونا».

وقد كانت أخبار النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغت الآفاق، فمنذ بدء دعوته وهو ﷺ بمكة وقد شاء الله عزوجل لهذه الدعوة أن تحتك بالعالم الخارجي فكانت هجرة المسلمين الأولى الثانية للحبشة ، فكانت بقدر الله فرصة حسنة لتعريف أهل الحبشة بدعوة الإسلام ؛ ومن ثَم فقد كانت مملكة الحبشة على صلات بأرض مصر، ولهذا فنحن لا نشك أن أهل مصر من المسيحيين بصفة خاصة قد علموا بشأن مبعث النبي ﷺ في وقت مبكر؛ وإن لم يتمكنوا من معرفة تفاصيل دعوته ﷺ .

ثم بعد ذلك بسنوات وبعد أن مكن الله لنبيه في المدينة المنورة أرسل صلى الله عليه وسلم خطابات لملوك الأرض في ذلك الحين يدعوهم للإسلام، ثم أغارت جيوش المسلمين على حدود دولة الروم، في غزوة تبوك ومؤته ثم بعث أسامة بن زيد الذي أنفذه أبو بكر ـ رضي الله عنهما ـ وما كان من إجلاء اليهود من المدينة إلى الشام، وهلاكهم جميعا هناك، فكانت بمثابة الآية والعلامة لتلك الشعوب على صدق نبوته، وصدق

دينه، كل هذه الأخبار ولا شك قد تناقلتها الركبان، فكانت بمثابة التمهيد لقبول شعوب هذه البلدان ومنها مصر للإسلام، إضافة إلى أن أهل مصر لا بد أنهم كانوا يترقبون جيوش المسلمين وهي تفتح مدن الشام مدينة تلو مدينة وتدك حصون الإمبراطورية الرومانية التي كانوا تابعين ؛ ولابد أنهم كانوا يتابعون انفراط عقد تلك الإمبراطورية أمام المسلمين ، مما حدا بهم ولاشك إلى مراجعة الأخبار التي تجمعت عندهم من قبل عن الإسلام ودعوته ، فكان أولئك الذين ينتظرون الخلاص يكتمون أنفاسهم متحفزين لاستقبال الفتح الإسلامي ليتحرروا من النير والأغلال التي كانت عليهم . وارجع إلى ما ذكرناه عن المقريزي من أن ذلك الرجل الذي جمع جيشا من ألفي فرد، وانضم للمسلمين، أنه كان قبل ذلك عكف على دراسة الإسلام والنظر فيه. فهذا يوضح لما اختار مايقرب من أربعين بالمائة من شعب مصر الإسلام وانضموا إليه، رغبة في الدار الآخرة، وحبا لله ورسوله، ولم لا وهم أخوة هاجر رضي الله عنها، التي أسلمت لله مع نبيه إبراهيم عليه السلام.

وكما سارع شعب مصر لقبول الإسلام، فقد كانت الغلبة والأكثرية العددية للمسلمين أيضا منذ اللحظة الأولى، وأن من سواهم كانوا دائما




أقلية حتى قبل دخول الإسلام. وهو ما سنفصله في نهاية الباب الثالث.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



# الباب الثالث

الفصل الأول : في بيان الأصول العرقية لمسيحي البلاد، قبل وبعد الإسلام.

الفصل الثاني : في بيان بطلان دعوى المؤرخين النصارى للإسباب الحاملة للمصريين على اختيار الإسلام.

الفصل الثالث : في بيان استخدام النصارى للجزية والإكراه لنشر مذاهبهم الدينية بين الشعب المصري.

الفصل الرابع : في بيان أن الغلبة العددية كانت للمسلمين منذ البدء ، وأن النصارى كانوا أقلية دائما على أرض مصر .



# الفصل الأول

## الهوية العرقية لمسيحي البلاد

ذكرنا أن إجمالي دافعي الجزية كانوا خمسة عشر مليونا، وأنهم كانوا يمثلون نسبة ستين بالمائة من سكان مصر. ولكن هؤلاء جميعهم لم يكونوا على مذهب واحد، أو حتى ملة واحدة، بل كانوا فرق شتى ونحل متعددة. فكان منهم يهود، ووثنيون، ونصارى من عدة مذاهب وفرق.

وبالعودة للإحصاءات التاريخية يمكن أن نستشف نسباً تقريبية لكل فريق. ولكن قبل الخوض في الإحصاءات ومحاولة استخلاص نتائج منها لابد لنا من لمحة تاريخية سريعة تبين طبيعة التركيبة السكانية لشعب لمصر، وهويته العرقية، والتي أثرت في تكوينه وانتمائه العقدي حتى دخول الإسلام، الذي استطاع أن يمزج الجميع، ويذيب من بينهم الفوارق التي كانت تقسم المجتمع فيما قبل.

فسكان مصر كانوا عبارة عن خليط من أجناس وأديان وأعراق عدة، وأغلبهم كان من الإغريق واليهود بالإضافة إلى الرومان وأعداد

من آسيا الصغرى، وكذلك العرب. كل هؤلاء سكنوا مصر واتخذوها وطنا لهم إلى جانب أهل البلاد الأصليين.

يقول المؤرخ د.محمد شفيق غربال :« أعني بالمصري: كل رجل يصف نفسه بهذا الوصف، ولا يحس بشيء ما يربطه بشعب آخر، ولا يعرف وطناً له غير هذا الوطن، مهما كان أسلافه غرباء عن مصر في واقع الأمر»[1]. وهؤلاء الأسلاف الذين لم يصرح بهم تصفهم لنا بتشر بقولها: «إن سكان مصر قبل استيلاء الرومان على مصر (أي قبل عام ٣١قبل الميلاد)، كانوا ثلاثة طوائف: اليونان واليهود والمصريين. وأن ........ كل فريق منهم أمة أجنبية مستقرة في البلاد ممتازة بشريعتها ولغتها عن سواها»[2]. ويقول ألن جاردنر: « وبعد الإسكندر الأكبر ـ تحت حكم البطالمة ـ احتشدت مصر بالإغريق الذين حطوا رحالهم بها وشغلوا بأعمالهم التجارية وبالزراعة».[3] فقد حرص الأسكندر الأكبر على فتح أبواب مصر للمهاجرين الأغريق خاصة المقدونيين ، و

---

1 (٣١) تكوين مصر عبر العصور ص (١٤).

2 (٣٢) تاريخ الأمة القبطية (١/ ٢).

3 (٥٣) مصر الفراعنة ص (١٧) لجاردنر، وانظر تاريخ وحضارة مصر القديمة لسمير أديب ص (٢٦١) وما بعدها.

على الرغم من قصر الفترة التي قضاها بمصر إلا أنه حول مصر إلى فلك الحضارة الإغريقية. وقام بطليموس من بعده بإنشاء مدينة جديدة في صعيد مصر ليوطن فيها الجنود المسرحين المقدونيين ...... ومكانها الآن المنشأة بمحافظة سوهاج، ...... وقد أقام هذه المدينة لكي تكون مركزا لنشر الحضارة الهيلينية في قلب مصر[1].

هذا عن الجاليات الإغريقية أما اليهود فقد بلغ عددهم بمصر في أول التاريخ الميلادي ما يزيد على المليون، ولما سقطت مدينة القدس (أورشليم) في عام ٧٠م وقضي على الثورة اليهودية تم اقتياد ٩٧ ألف يهودي ليعملوا في معادن مصر؛ ثم تبعهم عدد غفير يبتغون ملاذاً بأرض مصر لدي أخوانهم من اليهود الأغنياء. تقول بتشر : « ومنذ ذلك العهد أخذ اليهود في المهاجرة من بلادهم إلى مصر أفواجا أفواجا»[2] وإذا كانت مصر في ذلك الوقت بلغ جميع السكان بها ثمانية ملايين شخص، فإن ذلك يعني أن اليهود كان يشكلون ما يقرب من عشرين بالمائة من

---

[1] (٦٨) انظر تاريخ حضارة مصر القديمة لـ سمير أديب ص (٢٦٣ و ٢٧١).

(٦٩) تاريخ الأمة القبطية (١/ ٣٨).



سكان البلاد[1]. إضافة للجاليات الرومانية التي بدأت تحط رحالها في أرض مصر ابتداءً من عام ٣١ قبل الميلاد ومع قدوم أغسطس قيصر.

ويذكر بيلليني: «أن قبائل عربية كانت تعيش في برنيقى وهى ميناء على البحر الأحمر يعود الفضل في إنشائها إلى بطليموس الثاني»[2]. إضافة لما ذكره سترابون من أن مدينة "قفط" كانت تعد مدينة عربية.

وهكذا فإن دعوى نقاء العنصر، والبحث في الأصول والهويات هي دعوى سخيفة، ما كنت أحب أن أخوض فيها يوما، لا لعوار أو نقص، ولكن لقول الملك سبحانه : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. ولقول الرسول الأكرم ﷺ :«لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى». فمنذ العصور الأولى للإنسانية وحتى ظهور الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر لم تُعْرَف العرقية القومية، تلك الأكذوبة السخيفة التي يدندن بها البعض في هذا الزمان. فليس ثمة شعب في العالم منذ أن وعت البشرية تاريخها وسطرته، حتى الوقت الحاضر، بمنجاة عن الاختلاط،

---

[1] (٥٤) انظر المنارة التاريخية لإسكندر صيفي ص (٨٣). وتاريخ الأمة القبطية لبتشر (٨/١)

[2] (٣٣) محمد بيومي مهران.



سواء أخذ هذا الاختلاط صورة هجرات سلمية لشعب أثر في شعب آخر، أو حروب قامت بين دولتين، نتج عنها التفاعل والتداخل بين شعبيها، مما يدحض النظرية التي تقوم على نقاوة الدم أو عقدة الاستعلاء بين بعض الشعوب.

ولكن شركاء الوطن قد ألجئونا إلى هذا البحث إلجاءً، فخضنا غمار لا نحبها حتى نزيل لدى الطرف الآخر تلك الأوهام العنصرية، والأفكار الأسطورية، وليعلم أن فكرته ليست له بل عليه؛ وأنه أتى على نفسه من حيث أراد أن ينصرها، وهذا شأن الأفكار العنصرية غالبا.

فإن المسيحية التي ينتحلونها اليوم قد ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين[1]، وإنما انتشرت بين اليهود الذين كانوا يشكلون نسبة تقترب من عشرين بالمائة من السكان، والإغريق الذين كانوا يتفوقون عليهم في العدد، والمكانة.

فقد جاء في موقع الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية أن :«مرقص جاء مرة أخرى وحده وبدأ بنشر كلمة الرب بين اليهود وقد ترك

---

(٥٥) أقباط ومسلمون ص(١٠) جاك تاجر. وذكر أن هذه هو ما صرح به كل من لوفيفر وشولتز وشميدت.

مرقص في مصر إرثا مكونا من جماعة مسيحية مؤلفة بشكل رئيسي من اليهود الهيلينستيين الذين اعتنقوا المسيحية، وبقيت المسيحية في الظل بسبب قوة الطائفة اليهودية في الإسكندرية في ذلك الوقت وبعد الثورة اليهودية في الربع الأول من القرن الثاني الميلادي وما تبعها من تصفية اليهود في الإسكندرية بدأ المسيحيون في مصر بالظهور إلى العالم»[١].

وفي الحقيقة إن تصفية اليهود كانت لحساب المسيحيين إذ أن: «اليهود بعد أن قمعت ثورتهم (كانت في الفترة من ١١٥م إلى ١١٧م) في عهد الإمبراطور ترجان أصبحوا يعتنقون الديانة المسيحية أفواجا أفواجا».[٢]

ويقول صاحب كتاب تاريخ الفراعنة المحدثين في ص(٣١٧): «المسيحيين الأوائل كانوا جميعهم تقريبا من اليهود الهيلينستيين وقد بذلت محاولات قليلة لنشر المسيحية بين عموم المصريين القدماء».

ويذكر الشماس منسي: «أن بطرس الرسول أتى مصر لتبشير

---

(٥٦) مترجم من موقع الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية.

http://www.christian-egypt.com/CopticLanguage1.htm

وهو بحروفه في ذلك الموقع http://www.metalog.org/files/coptic.html

(٥٧) تاريخ الأمة القبطية (١/ ٤٥) لبتشر.

اليهود المتشتتين فيها كما هي خدمته فتقابل معه مرقس في مدينة بابليون التي فيها حرر رسالته الأولى»[1] فالهدف الأساسي كان هو خراف بني إسرائيل الضالة، وأما إلى طريق أمم فلا يذهبوا. خاصة وأن مدينة بابليون كانت مختصة بسكنى اليهود، فيذكر المؤرخ ديودور أن الأسرى البابليين الذين أخذهم رمسيس الثاني هم الذين أنشئوها. ويقول يوحنا اليهودي في القرن السابع الميلادي: أن « نبوخذ نصر قد بنى بهذا المكان قلعة دعاها قلعة بابليون، وذلك حين استيلائه على مصر بعد أن نفى اليهود إليها». والروايات التاريخية تحدثنا عن أقدمية سكنى اليهود لبابليون وأن لهم كنيس بها يزعمون أن بها التوراة التي كتبها عزرا النبي، ولهم هناك بقعة يقدسونها يزعمون أن بها قبر النبي أرميا[2]. ولهذا كانت مقصد المبشرين المسيحيين لكونها مأهولة باليهود. فهل هذا يمكن أن يفسر لنا سر احتفاء البعض منهم بدولة إسرائيل واعتبارها مثلا يحتذى، ومناداة بعضهم على شارون وبوش؟

وأما اليونان (الإغريق) فقد دخلوا في الدين الجديد أفواجا

---

[1] (٣٨) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسي ص (١٠).

[2] (٥٩) انظر تاريخ الأمة القبطية لبتشر (١/ ١٦-١٨)، وتاريخ الكنيسة لمنسي ص (٤).

أيضا، يقول الشماس منسي : «وفي عهد البابا أنيانوس نجحت التعاليم المسيحية واتسع نطاقها وتمذهب بها الكثيرون من أرباب المناصب العالية والأكابر والأعيان وبعض رجال الدولة»[١]. وهؤلاء الأكابر وأصحاب المناصب إنما كانوا إما من الإغريق أو الرومان. إذ أن المصريين الأصليين أهل الأرض، كانوا محرومين من الخدمة في الجيش أو تقلد الوظائف الرسمية بالدولة[٢]. فظلوا على عباداتهم الوثنية تابعين إلى كهنتهم. تقول بتشر : « كان أفراد كل من طائفتي اليونان واليهود الأجنبيتين متمتعين بجميع الحقوق المدنية والسياسية، أما المصريون أبناء البلاد فكانت محرمة عليهم هذه المزايا»[٣] .

وتتضح الصورة أكثر إذا نظرت في قائمة أسماء آباء كنيسة الإسكندرية أو مديري المدرسة اللاهوتية فلا تجد غير الأسماء اليونانية فمثلا إكليمنضس مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية تقول بتشر (١/ ٦٢) في حقه:«اسم هذا الرجل الشهير هو تيطس فلافيوس

---

[١] (٦١) تاريخ الكنيسة القبطية ص (٢٩)

(٦١) انظر الإمبراطورية الرومانية ص (١٦٤). لمصطفى العبادي.

(٣) تاريخ الأمة القبطية (١/ ٩).



إكليمنضس وفيه إشارة إلى وجود بعض الصلة بالعائلة الإمبراطورية»اهـ. وللعلم فـ "تيطس" هو اسم روماني خالص.

وكذلك أستاذه بنتيوس وأول مدير لمدرسة اللاهوت كان صقليا[1]، وهكذا إذا استعرضت باقي القائمة لم تظهر إلا الأسماء ذات الصبغة اليونانية (ألكسندروس، أثناثيوس، ديمتريوس، ......الخ). نعم يمكن أن يطلق على هؤلاء أنهم مصريون باعتبار الاستيطان، لا باعتبار الأصل والمنشأ، وأنهم من سلسلة مصريم بن حام بن نوح عليه السلام.

فالأسماء في ذلك العصر كانت تدل على الهوية العرقية والمنشأ الأصلي، إذ كانت توضع قواعد دقيقة لمراعاة كتابة الاسم واللقب، لأنهما كان يدلان على الوضع الاجتماعي للشخص، فلم يكن يسمح للمصريين باتخاذ أسماء إغريقية أو رومانية[2].

---

[1] (٤٦) تاريخ الكنيسة الشرقية ص (٤٥). لعزيز سوريال عطية، وهو يقول عن إكليمنضس أنه من موطني أثينا. وذكر أنه كان متضلعا في الفلسفة الغنوصية ، وكانت رؤية لها تتسم برحابة الصدر والتفهم نحوها.

[2] (٤٦) انظر الإمبراطورية الرومانية ص (١٧٧). لمصطفى العبادي



هذا، والذي سهل على الإغريق والرومان الدخول في المسيحية في ذاك الوقت، أن الأناجيل والرسائل وشتى الكتب الدينية كانت تكتب وتؤلف باليونانية لغتهم، فبالرغم من أن إنجيل مرقس كتب في مصر إلا أنه حرر باليونانية[1]، فكان في الوقت ذاته حاجزا في وجه المصريين إذ إنهم لم يكونوا يعرفون سوى لغتهم المصرية القديمة التي كان يطلق عليها الإغريق الهيروغليفية، والديموطيقية على حسب لسانهم اليوناني. ـ في ذات الوقت التي لم تكن اللغة فيه عائقا لهم في اعتناقهم الإسلام، لأن لغتهم المصرية كانت شديدة الشبه والقرب من العربية الفصحى، وفي هذا بحث ليس هنا محله ..

يقول أنطوان ذكري :«كان اليهود المقيمون بالإسكندرية يتكلمون باليونانية التي كانت التوراة مترجمة بها عندهم، فلم يكونوا إذن في حاجة

[1] (٨٥) فلما لم يكتب إنجيله باللغة المصرية إن كان المقصد والمراد المصريين؟ خاصة أن سفر أعمال الرسل يذكر في مطلع إصحاحه الثاني : أن تلاميذ المسيح قد امتلؤا من الروح القدس الذي علمهم لسان كل قوم وكان من جملة ما تعلموه وتكلموا به لسان مصر. فما عذرهم إذا ؟ وقد كان البشير مرقص تلميذ الحواري بطرس . أم أنهم كانوا يرون أن لغة مصر هي اليونانية ، وأن هذا الشعب الذي سكن تلك الإرض منذ القدم ولا يحسن سوى لغته المصرية القديمة غير جدير بالاعتبار؟.

إلى ترجمة الإنجيل إلى اللغة المصرية»[1]. فهكذا كانت التوراة مترجمة من قبل لليونانية، وهي المعروفة الآن بالتوراة السبعينية، لأن من قام بترجمتها اثنان وسبعون من علماء يهود. وأما سائر الكتب المسيحية فقد وضعت باليونانية.

ولهذا انتشرت المسيحية بين الجاليات اليهودية واليونانية والرومانية التي استوطنت مصر؛ ولما أرادوا نشر مذهبهم المسيحي بين المصريين فكروا في ترجمة الإنجيل للمصرية، ولكنهم كانوا يعجزون عن اللسان المصري، والخط المصري، فذهبوا إلى حل وسط فاخترعوا الخط القبطي، ليقوموا من خلاله بكتابة اللسان المصري بخطهم اليوناني.

يقول أنطوان ذكري في كتابه مفتاح اللغة المصرية القديمة ص (١١٨ ـ ١١٩) : « أبطل نصارى مصر هذه الكتابه ( يعنى الخط الديموطيقي) لتعقيدها وصعوبتها فاستبدلوها بالقبطية». فأنى لمن لا يعرف لسان آبائه وقومه وهو حديث العهد بهم قائم بين أظهرهم، أن ينسب نفسه لهم، ويدعي أنه منهم؟!. بل إنهم أجبروا المصريين الذين قبلوا المسيحية على الانسلاخ من هويتهم، ووطنيتهم، ولغتهم،

[1] (٤١) مفتاح اللغة المصرية ص (١٢١).

وتاريخهم.

يقول أنطوان ذكري إن المصريين لما تنصروا : «عرفوا بالأقباط وقطعوا علائقهم بالتقاليد القديمة تدريجيا ولاسيما بالكتابة الهيروغليفية والديموطيقية اللتين كانتا صعبة المنال»(١). يدلل على ذلك أن بعضهم لم تعد أسماؤهم اليوم مصرية، وإنما يتخذون لهم أسماء يونانية، ورمانية.

وهكذا وباستعارة تعبير الأنبا توماس أسقف القوصية، تحول المصريون إلى شيء آخر بعد أن تنصروا، «فالمسيحيُّون حتَّى الَّذين من أصل وثني يشعرون بأنَّهم ينتمون إلى شعب إسرائيل». هكذا جاء في شرح الفقرة الأولى من رسالة "إلى العبرانيين" طبعة جمعيات الكتاب المقدس في المشرق، نشر الرهبانية اليسوعية في بيروت.

وبما أن اللغة هي أحد عناوين الهوية فإذا ألقيت النظر على اللغة المستخدمة من قبلهم رأيتها اليونانية، حتى بعد الفتح الإسلامي لم يستخدموا الخط المصري القديم، ولم يكتبوا حتى بالخط الجديد الذي أسموه بالخط القبطي، وإنما آثروا عليه الخط اليوناني كما تدل على ذلك الوثائق، يقول جروهمان : «كان الخلفاء والولاة لا يهتمون بالإدارة إلى

(٦٥) مفتاح اللغة المصرية ص (١٢٠).

حد أن وجد سجل بأسماء دافعي الضرائب، من مسلمين ونصارى، مكتوب بكاملة باللغة اليونانية، وفي صفحته الأولى إشارة الصليب »[1]. فلم لم يستخدموا في الأعمال الخط القبطي. ولا يقبل في هذا المقام أن يقال أن المسلمين قد منعوا هذا الخط واضطهدوه كما يزعم البعض، فبالنسبة للمسلمين الخط اليوناني والقبطي مستويان، إن لم يكن في هذه الحالة القبطي أفضل إذ أنه خط أو لغة تخالف لغة الإدارة السابقة للبلاد والتي مازالت لها أطماعها بالبلاد.

ويذكر جاك تاجر أنه : «وجدت أوراق بردي مكتوبة كلها باليونانية حتى عام ١٦٤هـ (٧٨٠م) بينما وجدت أوراق محررة باليونانية والعربية في آن واحد. »[2] فأين كان الخط المصري في المحررات، لم غلب عليه الخط الأجنبي؟. والذي غلب أيضا في الأعمال الدينية، فمذبح كنيسة العذراء الأثرية التي بدير المحرق على شكل مكعب غير متساوى الأضلاع، وعلى سطحه رخامة لها حافة على شكل نصف دائرة ومنقوش عليها باللغة اليونانية عبارة نصها : "نيح يارب الطوباوى كلتوس"،

---

(٦٦) أقباط ومسلمون ص (٣١١) لجاك تاجر.

(٦٧) أقباط ومسلمون ص (٣٠١) لجاك تاجر.

وتاريخها ١٥ كيهك سنة ٤٦٣ ش الموافق ١١ ديسمبر سنة ٧٤٦ م . فلم نقش عليها باللغة اليونانية؛ ولم يكن النقش بالقبطي؟ على الرغم من أن الرومان واليونان كانوا قدر رحلوا عن مصر في ذلك الزمان من أكثر من مائة عام.

إن شركاءنا في الوطن كثيرا ما نسمعهم يدندنون بأن المسلمين الأوائل قاموا بحملة تعريب واضطهاد للغتهم القبطية والتي يزعمون أنها الحلقة الأخيرة في طور تطور لغتنا المصرية، إلا أن تلك الوثائق والآثار دليل دامغ على بطلان تلك المزاعم، مع كونها دليلا أيضا على أنهم لم يكونوا يحسنون سوى خط ولغة آبائهم الإغريق الأوائل.

بل إن الوثائق البردية تجعلنا نرفض الصورة التي تروى عن قرارات التعريب للدواوين الحكومية، فإن اللغة العربية في الحقيقة استعملت منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامي بجانب اللغات الأجنبية، فالوثائق الرسمية والتي يعود تاريخها لعام ٢٢هـ - وهي السنة الأولى للفتح الإسلامي - كانت محررة بالعربية واليونانية. كما ظلت اليونانية تستخدم في تحرير الوثائق الرسمية حتى بعد ما سمي بقرار التعريب.



## الهوية العرقية لمسيحي البلاد بعد الفتح

كثيرا ما نسمع من شركاء الوطن أن العرب قد قاموا بهجرات منظمة إلى مصر وبذلك صارت لهم الغلبة على أهل البلاد الأصليين، كذا يقولون. ولكن لعلهم لا يعلمون أن ما كان يدعم تواجدهم هو ما كان يفد على البلاد من أجانب وغرباء عن الوطن.

يقول منسي : « ولما فتح العرب عدة ولايات وجزر للروم في أمشير سنة ٦٥٩م في عهد خلافة على بن أبي طالب، نهبوا كل ما فيها وسبوا أهلها وأتوا بهم إلى مصر فكان البابا أغاثوا يبتاع منهم الرجال والنساء بالفضة والذهب ويأتي بهم إلى بيوت المسيحيين خوفا من أن يسلموا ».[1] ويذكر ساويرس أنهم كانوا من جزيرة صقلية، ولم يكونوا على مذهب المسيحيين الأرثوذكس، وإنما كان البطرك يشتريهم ويحولهم لمذهبه.[2]

كما أنه أنه في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك قد كثر ظفره على

---

(٦٨) تاريخ الكنيسة القبطية ص (٣٨١).

[2] (٧١) تاريخ البطاركة لساويرس (٢/ ٤-٥).



الـروم وتغلـب عـلى الكثـير مـن بلادهـم، فـسبى الكثـير مـنهم ، وكـان الأسرى يـأتى بهـم فيبـاعوا في مـصر وغيرهـا، فكـان الأقبـاط يـشترونهم بكثرة. يقول يعقوب نخلة: «وممن اشتهر بهذا العمل الجليل بطريـركهم الموجـود حينئـذ فإنـه صرف أمـوالا طائلـة في شرائهـم وتحريـرهم»[1]. فهكـذا كانـت أصـول القـوم وهويـاتهم خلـيط مـن اليهـود والإغريـق والرومـان وحتـى بعـد الفـتح الإسـلامي، وظلـت النـصرانية غريبـة عـن شعب مصر القدماء .

وما قصدنا مـن وراء ذلـك إلـصاق نقيـصة أوعـوار بأحـد، غـير أنـا أردنا أن يعلم مبتاعو الفتن أن بضاعتهم ردت إليهم فيرعـوا، وعـسى أن يعلـم المنقـادون خلـف الأباطيـل الحقيقـة، فتهـدأ نفوسـهم. إذ أن تلـك الأحقاد التي تزرع في القلوب فتغلي بهـا النفـوس تأكلهـا قبـل أن تـصب حممها على المراد قذفهم بها.

هذا ؛ في حين ظل أهل البلاد يدخلون في ديـن الله أفواجـا أفواجـا ، ففي خلال أقل من تسعين عاماً من الفتح كان قد تحول للإسلام من أهل البلاد ما بين أربعة إلى خمسة ملايين.

---

(٦٩) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ص (٧٤).





إذ يذكر يعقوب نخلة : «أنه في عام ١٠٧هـ كان عدد من يدفع الجزية أكثر من خمسة ملايين» [1].

ويذكر الكندي عن الليث بن سعد أن الوليد بن رفاعة لما ولي الخراج لأمير المؤمنين هشام، خرج لإحصاء الجماجم والقرى، فأقام ستة أشهر بالصعيد، وبأسفل الأرض ثلاثة أشهر، فأحصى فوق عشرة آلاف قرية ، فكان جملة ذلك خمسة آلاف ألف. أي خمسة ملايين ، وكان هذا في حدود سنة عشر ومائة أي بعد الفتح بحوالي تسعين عام ، في حين أن دافعي الجزية زمن الفتح كان ستة ملايين ، أي أن هناك مليون نفس من هؤلاء قد أسلموا إضافة إلى أهليهم من الذين لم تجب عليهم الجزية أي حوالي مليون ونصف آخرين ، وإن أخذنا في الحسبان معدلات الزيادة السكانية لشعب مصر مقارنة بما كان عليه الحال في القرون الستة السابقة، فيمكن القول أن هناك مليونين آخرين قد أسلما ، فعلى الرغم من الزيادة السكانية فإن أعداد النصارى قد تناقصت ولم تظل حتى على ما هي عليه نتيجة تحول أربعة ملايين ونصف أو أكثر خلال أقل من تسعين عام من الفتح الإسلامي . أي بمعدل خمسين ألف سنويا

---

[1] (٨٩) تاريخ الأمة القبطية ص (٧٣)





# الفصل الثاني

# نقض دعوى النصارى في أسباب رغبة المصريين في الإسلام

أما ما يردده كُتّاب ومؤرخو النصاري بأن السبب في إسلام هؤلاء هو سوء الحالة الاقتصادية والفرارا من الجزية، فليس بشئ ؛ ففي خلال الفترة المذكورة تولى ولاية مصر كل من عمرو بن العاص مرتين (الأولى ٢٢هـ حتى ٢٤هـ ، والثانية من ٣٨ هـ حتى ٤٣هـ) ، وعبد الله بن سرح (٢٤هـ حتى ٣٥هـ) ، ومسلمة بن مخلد (من ٤٧هـ حتى ٦٢هـ) ؛ والمؤرخون متفقون على أن الفتح الإسلامي قد أنقذ هؤلاء من الضياع والهلاك ، وأنه منحهم الحرية فعاد مذهب الطبيعة الواحدة للحياة مرة أخرى ، كما أن الجزية التي أخذها عمرو رضي الله عنه منهم كانت اثني عشر ألف ألف دينار (١٢ مليون دينار) في حين كان هرقل النصراني يجبي له المقوقس البطرك الملكاني عشرين ألف ألف دينار (٢٠ مليون دينار) ، ويذكر الراهب أنطونيوس : أن عمراً رضي الله عنه «لم يطلب

غير الجزية ؛ وأنه ألغى الضرائب الفادحة التي كان أباطرة القسطنطينية قد فرضوها على المصريين بغير رحمة» . ويقول: «وبالإجمال لم يتول على مصر أمير أحسن التدبير مثله»[1] . وبالجملة: «فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان»[2]

وسار من بعده عبد الله بن سرح رضي الله عنه على سيرته؛ وكل ما أنكره عليه المؤرخون النصارى أنه زاد الجزية مليونين فصارت في زمنه أربعة عشر ألف ألف ، وهذه الزيادة إذ وزعت على دافعي الجزية أصبح نصيب كل فرد فيها ثلث دينار ، فهي على تلك الصورة ليست بالزيادة الفادحة التي تدفع المرء للتخلي عن دينه وإنكار اعتقاده ، فضلا عن أنها تظل أيضا أقل بكثير مما كان يجبيه الملك النصراني من المصريين .

وأما مسلمة بن مخلد فـ «كان رجلا عادلا نزيها يعامل جميع المصريين معاملة واحدة فلا يفرق بين مسلم ومسيحي إلى حد أنه سمح للقبط بأن يبنوا كنيسة خلف الكوبري عند الفسطاط . ومما يذكر عنه أيضا أنه كان يتعامل مع أساقفة الأقباط كمساعدين له في علاج

[1] (٩٠) وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص (٦٣).

[2] (٩١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ص (٥٧).





الأمور» هكذا تحدث عنه الراهب أنطونيوس[1].

وخلال الفترة من عام ٤٤هـ وحتى عام ٤٧ هـ ولي مصر كل من عتبة بن أبي سفيان ، وعقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه ، ولم يذكر عنهما أنهما أتيا بسوء في حق أهل مصر أو أحدثا أمراً جديداً ؛ بل إن عتبة حين استخلف على مصر عبد الله بن قيس وكانت فيه شدة على بعض أهلها رجع إلى مصر ثم خطب في أهلها خطبة تدل على حسن سيرته مع أهل مصر ؛ فكان مما قاله : «يا أهل مصر ، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم . وقد وليكم من إن قال فعل .....إن لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه». وهكذا مرت أربعون عاما من الفتح الإسلامي في سلام وأمان على الجميع.

ثم وليها سعيد بن زيد عام ٦٢هـ وكانت ولايته عامين إلا شهراً ، ويقولون : أنه اضطهد الأقباط اضطهادا شديداً[2] ؛ فالله أعلم. ولكن أهل مصر من المسلمين لم يكونوا مرحبين به وكانوا يتمنون لو أُمِّر

---

[1] (٩٢) وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص (٨١).

[2] (٩٣) وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص ().



عليهم غيره. ثم وليها ابن جحدم من قبل الزبير ولكن لم يدم عليها طويلا ثم وليها عبد العزيز بن مروان في عام ٦٥هـ وحتى عام ٨٦هـ وقد ذكر ساويرس بن المقفع أن عبد العزيز «جعل له كاتبان مأمونان أرثذكسيان جعلهما على جميع كورة مصر ومريوط ومراقية ولوبية»[1].

وأن البطرك كتب إليهما يشكو ما أصابه من ضر على أيدي الخلقدونيين الكفرة (يعني المسيحيين الكاثوليك، أصحاب مذهب الطبيعتين)، وأنه تم رفع عنه هذا الضر. ويقول: «ورزق الأب البطرك قبولا ونعمة عند الأمير».

ثم يذكر أن البطرك: «اشترى للكنيسة رباعا بمصر وفي مريوط والإسكندرية، وبنى طاحون كعك ومعصرة زيت حار ودورا كثيرة جعلها للبيعة، وكانت تلك سبيله للقيام بحال ضعاف النصارى حين أصاب البلاد الغلاء، فكان يدفع لهم قوتهم دفعتين كل جمعة ويدفع أيضا دراهم، وكانت طاحونة الكعك لا تبطل لا ليلا ولا نهار، بل تعمل للمنقطعين، وكان يدفع صدقات كثيرة مثل البحر وما كان يعجز

[1] (٩٤) سير البيعة المعروف بتاريخ البطاركة (٢/ ٢١).

عن شيء في أعماله»[1] . فأين هي الأزمات الاقتصادية التي تأثر بها النصارى حتى يتحولوا للإسلام ، أو الاضطهاد والضغوط المادية ، إننا إن صدقنا كُتّاب النصارى لا نجد أن ما يحكونه لا يعدو مجرد سحابة صيف لم تدم العامين .

أما ما يذكرونه من أن عبدالعزيز بن مروان هو أول من فرض الجزية على الرهبان ، فهو أيضا لا ينبغي أن يعد في دائرة الضغوط المسببة للتحول للإسلام ، فهل كل هذه الملايين التي أسلمت كانت من الرهبان؟ وهل يترك الراهب دينه من أجل دينار؟ وهي كانت قيمة الجزية المفروضة عليهم حينئذ.

كما أن فرض الضريبة على الراهب لم تكن بالشيء المستهجن لولا أن المسلمين الأوائل أعفوهم منها ؛ فهم يزعمون في كتابهم المقدس أن المسيح عليه السلام قد دفع الجزية للوثنيين؛ ففي متي (١٧ / ٢٤ـ ٢٧): (ولما جاءوا إلى كفرناحوم تقدم الذين يأخذون الدرهمين إلى بطرس وقالوا: أما يوفي معلمكم الدرهمين؟ قال: بلى.)

يقول يعقوب ملطي: «خضع السيّد المسيح مع تلاميذه لإيفاء الجباية أو

[1] (٩٥) انظر تاريخ البطاركة (٢/ ٣٦ وما بعدها ).

الجزية»[1] . فهو أمر طبيعي وعادي مقبول تماما من جهة النظر الدينية المسيحية ؛ إذ يقول يوحنا الذهبي الفم في تفسيره لما جاء في لقول بولس ( لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة) : «لقد أظهر بولس أن هذه التعليمات تشمل الكل كالكهنة والرهبان وليس فقط الذين يمارسون أعمالا عالمية ؛ إذ يقول : لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ؛ فإن كنت رسولا أو إنجيليا أو نبيا، أو أيّا كنت فلتعلم أن هذا ليس مدمرا للدين».

ولعل الذي حمل عبد العزيز على فرض الجزية على الرهبان هو ما نقله له الشماس الراهب بنيامين وغيره من الوشاة بأن الرهبان النصارى يأكلون ويشربون ولا يعملون[2] . وعلى ما يبدو أن تلك الصفة كانت ملازمة للرهبان مشهورين بها فتقول بتشر : «وأول باعث على هذه الرهبنة هو القانون الذي وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠م وفيه يعفي العزاب والذين بلا نسل من دفع الضرائب المفروضة على غيرهم وهذا القانون حدى بالكثرين من محبي النفس والمال إلى الامتناع عن الزواج».

---

[1] (٩٨) من تفسير وتأملات الآباء الآولين- الإنجيل بحسب متي - للقمص تادرس يعقوب ملطي ص (٣٨٤).

[2] (٩٧) تاريخ البطاركة (٢/ ١٠٦).



وتضيف : «أن القانون الذي جعل مصاريف اللقطاء على الحكومة قد ساعد الرهبان على نشر الشر الفساد»[1].

ثم ولي بعده عبد الله بن عبد الملك ( ٨٦هـ وحتى ٩٠هـ) وقرة بن شريك (٩٠هـ وحتى ٩٦هـ) ، وقد اتهم ساويرس في كتابه عبد الملك بحب المال مما دفعه للشدة على النصارى ، ثم اتهم قرة بأنه كان أكثر جشعا من سلفة ، ولكن أوراق البردي التي اكتشفت في قرية كوم أشقاوة أوضحت لنا تهافت ما ذكره ابن المقفع وبعده عن الحقيقة في شأن قرة وبالتالي فما ذكره في شأن عبد الملك أبعد وأضل سبيلا. بل إن النصارى الأرثوذكس في زمن قرة بن شريك هم الذين استعملوا الإكراه المادي في حق مخالفيهم من النصارى وأنزلوا بهم البلايا حتى يجبروهم على الدخول في مذهبهم ، وسيأتيك تفصيل ذلك عما قريب .

ثم ولي مصر أسامة بن يزيد وقد ذكر ابن المقفع أنه أوقع بالبلاد ظلما كثيرا ، وأنه كان محبا للمال لا يتورع عن فعل أي شيء من أجله ، ولكن على أي حال فإن ولايته لم تزد على العام ، حتى تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله فعزله وولى مكانه أيوب بن شراحيل وعلى

---

[1] (٩٧) تاريخ الأمة القبطية لبتشر (١/ ٢٧٦).

الرغم من عدل الخليفة عمر بن العزيز الذي عم جميع البلدان ومنها مصر ، فأمر أن لا يكون على البيعة والأساقفة خراج ، ........، وأبطل الجبايات وعمر المدن التي خربت وكان النصارى في أمن وهدوء، هكذا قال ساويرس عنه ، بالرغم من أنه بدأ بوصفه أنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ، ويفعل السوء أمام الله. وكأن المؤرخ المنصف المحب للحق والصدق كان يجالسه فكان على علم بسره وعلانيته .

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وعلى حسب ما يحكي ابن المقفع أنه أعاد الخراج الذي كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه ، ويقول ابن المقفع : وما نحسن أن نشرح ما جرى في أيامه ولا نذكره من السوء والبلايا. هكذا يقول، وعلى كل فلم يدم ملكه طويلا فما لبث أكثر من عامين وأشهر قليلة حتى توفاه الله وولي بعده هشام بن عبد الملك الذي وصفه ابن المقفع بأنه كان رجلا خائفا من الله على طريق الإسلام ، وكان محبا لسائر الناس ، ويخلص الأرثوذكسيين.

ووصفه الراهب انطونيوس بأنه كان يحب المسيحيين جدا ، ويقول : «وفي عهد البابا ميخائيل السكندري كان يدخل الإسكندرية في



احتفال رافع الإنجيل والصلبان والشموع»[1]. وفي هذا العهد عهد هشام بن عبدالملك جرى الإحصاء المذكور الذي دل على إقبال شعب مصر على الإسلام أفواجا تترا .

وبعد هذا العرض الموجز يتبين أن أقصى ما يمكن أن نصدقه عن الضغوط التي يزعم مؤرخوهم أنهم تعرضوا لها لم يبلغ سوى خمسة أعوام ، وكانت بصورة متقطعة ولم تكن متصلة ولم تكن بهدف ديني وإنما كانت لأغراض مادية ، وأن المسلمين قد أضيروا منها مثلهم مثل النصارى، فلا يصح لدى ذوي العقول أن يعتبروا تلك المبرارت أسبابا لاختيار شعب مصر للإسلام دينا.

ومن هذا نعرف مدى تهافت قول الراهب أنطونيوس وبُعْدُهُ عن الصدق من : «أن معظم الذين اعتنقوا الإسلام من الأقباط كان بسبب التهرب من دفع الجزية وليس حبا في الإسلام كدين»[2]. وأن ما يقال في هذا الصدد ما هي حملة دعائية ، لا ترقى لمستوى التحقيق التاريخي.

وبنظرة سريعة وربط الحاضر بالماضي نرى الآتي : أنه إن كان قد

---

1 (٩٦) وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص (٨٥).

2 (١٠٠) وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ص (٧١)

أسلم من أهل مصر ما بين أربعة إلى خمسة ملايين في خلال أقل من تسعين عاما (٢٢هـ إلى ١١٠هـ) أي بمعدل خمسين ألف أو أكثر كل عام، وهو يوازي ما بين مائة وخمسة وثلاثين إلى مائة وخمسين شخص يوما ؛ فإن تلك الأرقام هي هي نفس الأرقام أو الأعداد التي تتحول للإسلام يوما في وقتنا الحاضر ، وعلى حسب ما صرحات به لجنة تثبيت الإيمان المسيحية والتي عقدت برئاسة الأنبا باخوميوس بأن هناك ما بين ثمانين إلى مائتي حالة ارتداد عن المسيحية يوميا. هذا في الوقت الذي ليس فيه جزية أو أي شيء مما يحكون عنه في الماضي ؛ فنحن الذين نعيش هذا العصر اليوم ؛ ونرى الدعوة إلى الله هي المضطهدة ، والمسلمون يلقون العنت والضيق.

وبقيت لنا فهذا الصدد كلمة أخيرة ؛ فهؤلاء الذين أسلموا على أي هيئة كانت هم آباءنا وأجدادنا ؛ وليسوا بآبائكم وأهليكم فنحن أولى بهم وبالدفاع عنهم ، كما أننا نعلم أنهم لم يقوموا بعمل توكيلات لكم لتقوموا بالدفاع عنهم. ونحن الآن راضون بإسلامهم وإسلامنا سعداء بذلك ؛ فاتركوا ذلك العبث خيرا لكم. واعلموا أن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين.

أما إن كنتم مصرين على ذلك الغي ؛ فلتعلموا إذا أن الذين



استخدموا الإكراه المادي ، والضغوط المادية لنشر دينهم هـم أجـدادكم؛ وهو ما سنفصله على وجه الإيجاز في الفصل التالي.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



# الفصل الثالث

## الإكراه على النصرانية

وبعد أن فندنا تلك الأوهام التي تزعم أن المصريين قد انتحلو الإسلام كرها ؛ فمن الواجب للحقيقة والتاريخ أن يعلم الجميع أن حملات الإكراه الديني التي أصابت المصريين عامة إنما بدأت في نهاية القرن الرابع الميلادي على يد منتحلي النصارانية .

يقول جاك تاجر : «ترك مسيحيو مصر ديانة أجدادهم مكرهين لأن ديانة الفراعنة ومعابد الفراعنة وآلهة الفراعنة كانت تذكرهم بمجد مصر في مختلف عهودها. فلا غرابة لو ظلت معتقداتهم القديمة راسخة في نفوسهم ، رابضة في قلوبهم بعد اعتناقهم المسيحية».[1] فلو كانت المسيحية بالنسبة لهؤلاء اختيارا حرا لما ظلت الوثنية باقية في قلوبهم. وهو ما يؤكده بقوله : «ولما زالت عبادة الأصنام وكفت السلطة الحاكمة عن حمايتها، لم يستطع المصريون تلافي المسيحية».

---

[1] (١٥١) أقباط ومسلمون ص (١١-١٢).

وسبب ذلك هو تحريض بطرك النصارى الإمبراطور على المصريين فتقول إيريس حبيب : «وقد انتهز الأنبا ثيئوفيلس فرصة وجود الإمبراطور ثيئودوسيوس بالإسكندرية فأقنعه بفكرة تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس مسيحية . وراقت هذه الفكرة في عيني الإمبراطور فأصدر على الفور أمراً بتيسير هذا لطلب».[1] فشرع البطرك ورجاله بحماس متقد في تحويل أماكن العبادة لدي المصريين لكنائس.[2]

الطريف أن الكتابة تقول أن البطرك لم يفعل سوى هذا وحسب؛ فهل ما كان يكفي إغلاق أماكن عبادة أولئك؟ أليس إغلاق أماكن العبادة هو الغاية في الاضطهاد وتحويل الناس قصرا عن أديانهم ؛ إن المسلمين حين دخلوا بلاد فارس وكان بها المجوس الذين يعبدون النار سنوا بهم سنة أهل الكتاب فتركوا لهم حرية الاعتقاد واعتناق ما يشاؤون على أن يدفعوا الجزية، فتأمل الفارق أيها اللبيب.

«أما في مصر فقد سارت عوامل الخراب في هاتيك الهياكل سير النار في الهشيم وذلك بأمر ثيوديوسيوس بناء على طلب البطرك

---

[1] (١٥٤) قصة الكنيسة القبطية لإيريس حبيب المصري (١/ ٣٤٦).

[2] (١٥٢) راجع المصدر السابق (١/ ٣٤٧، ٣٤٨).



ثوفيلس»[1] وهكذا سرت أعمال التدمير في آثار المصريين، مابين تحويل دور العبادة الوثنية لكنائس ، أو الاستيلاء علي محتوياتها واستخدامها في بناء الكنائس وما شابه ذلك. فيذكر الأب ميشيل جوليان وهو راهب فرنسى زار عدداً من المعابد القديمة التى تركها الفراعنة أن المسيحيين حولوا معابد الآله القديمة إلى كنائس ، وفى بعض الأحيان حولوا جزء من المعبد إلى كنيسة.

وقد وجد الأب جوليان كنيسة فى صحن معبد دندرة ، واثنتين فى معبد الأقصر ، واثنتين آخرتين فى معبد الكرنك ، وكذلك وجد أن معبد الملكة حتشبسوت قد تحول إلى دير أطلقوا عليه اسم الدير البحرى، على أنه لم يبق الآن أثراً لهذا الدير ، غير أن بعض الصلبان ما زالت مرسومة على جدرانه[2].أما الدير الأبيض فعلى أبوابه نقش عليه بعض صور الالهة مما يدل على أنها نقلت من معابد فرعونية .

وتمضي بتشر في وصف هذا الاضطهاد وتلك الشرور؛ فتقول :

---

[1] (١٥٣) تاريخ الكنيسة القبطية لأديث بتشر (١/ ٣٠٦).

[2] (١٥٣) انظر مقالة " الاثار القبطية تبعاً لملاحظات الأب جوليان " نشره فى مجلة الاثار القبطية العدد السادس سنة ١٩٤٠م.

«فصاروا يميلون إلى اضطهاد كل من يخالفهم في الدين والمذهب حتى أن الرهبان كانوا أكثر الناس شراً من هذا القبيل وقد بلغت شرورهم الحد وعم إثمهم كل مكان خصوصا مصر فأصبحوا فيها جيشاً ناشذاً، يسيرون حفاة الأقدام ، حتى شبهوا جماعة الثوار في كل أطوارهم من جهل وعمى ، وبعدت عنهم المعرفة والعلم، ومما طوح بهم إلى مهاوي الشر والفساد عدم وجود ذلك الرباط الطبيعي الذي يربط الإنسان عن ارتكاب المنكر»[1].

وهذا الاضطهاد لم يقف عند حدود الوثنيين وحسب بل امتدد إلى كل من يخالفهم في المذهب، تقول بتشر : «ولما وطد كيرلس نفسه على الكرسي البطريركي بداء في اضطهاد اتباع نوفاتيانوس الهرطوقي اضطهاداً عنيفا وكانت هذه الشيعة قد قويت في مصر وصار لها أسقف خاصا بها اسمه ثيوبمتوس جرده كيرلس من جميع أملاكه ومقتنياته وأخذ منه ذخائر الكنيسة التي كانت تحت يده»[2].

كما امتدت المعاناة إلى الفلاسفة فتذكر في (٢/ ٧٦) : أن الفلاسفة

1 (١٥٥) تاريخ الأمة القبطية لأديث بتشر (١/ ٣٠٥).

2 (١٥٤) المصدر السابق (٢/ ٢٣).



الأقباط تعرضوا في أوائل القرن الخامس للاضطهاد والعذاب حتى أنهم جلدوا جهارا في الشوارع. وكان من لطف الله بالمصريين أن وقع الخلاف سريعا ما بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية التي مال إليها الإمبراطور فتوقفت السلطة عن دعم عمليات الترويع ضد المصريين.

وبعد أن دخل الإسلام وعم الجميع بعدله ظل هؤلاء يتحينون الفرص للإيقاع بمخالفيهم في المذهب الديني وإجبارهم قصرا على التحول إلى معتقدهم.

ففي الوقت الذي كان المصريون يختارون الإسلام حين حررت إرادتهم من القهر ، ظل النصاري يمارسون سياسية الإكراه لحمل الناس على التحول لمذهبهم الديني فيذكر ساويرس أن الأرخن يونس تقرب من الوالي قرة بن شريك حتى ولاه شأن الرهبان ، فلما أخذ السلطان عليهم قال لقرة : «إن فيهم من لا يؤمن بأمانة النصارى القبط ، ولا يصلون مع المسلمين فما ترى أن أفعل بهم ؟» فظل بالوالي قرة بن شريك يحرضه عليهم حتى ضاعف الجزية عليهم، وهذا التحريض والإكراه قد حمده وأثنى عليه ساويرس فيقول :« فخرج من عنده بتدبير الله» هكذا

أصبحت مضاعفة الجزية وإكراهم على تغيير مذهبهم من تدبير الله . يقول ساويرس : «ومضى (أي الأرخن يونس) أولا إلى كرسي "صا" وهو كرسي، وكان هناك قوم مخالفون وهم : غايانيون ، وشمطيكيون الذين ليس لهم بركة فأزال مقالتهم النجسة وعمدهم باسم الأب والابن والروح القدس» يقول : ثم مضى إلى المنى وكان أسقف كرسيه أبا هور، وعمد الرهبان هناك بعد دحضهم الخلاف، وكذلك الغايانيون والبرسنوفيون الذين هناك أشركهم مع الأرثذكسيين. وخرج من هناك مضى إلى وادي هبيب وكان هناك أيضا مقالة الغايانيين من مائة وسبعين سنة من وقت الخلاف على يد يوليانوس أعادهم أيضا إلى الأمانة الأرثذكسية، وجمع كل البيع مجمعا واحدا» ويضيف : «وليس هبيب فقط بل وفي كل موضع يجد في أصول مره، التي هي المقالات النجسات من الرهبان أو من غيرهم. وفي مدينة بنا وبوصير وسمنود وأعمالهن ورشيد ودمياط وقلعهم الرب من أصولهم ورمى بهم وجميع كورة مصر جعلها اتحادا واحدا وأمانة واحدة، وأبطل سائر المقالات النجسات . ومقالة التاوضوسيين أبطلها أيضا»(١) . وهكذا نرى أن الجزية والإكراه

---

[1] (١٥٠) تاريخ البطاركة (٢/ ١٣٣-١٣٥، ١٤٢).



هما الذين حملا بعض المصريين على انتحال النصارانية.



# أقلية دائما، وأغلبية دائما

وبعد فقد آن تعرف أن من دان بالمسيحية سواء كان من أبناء الجاليات الأجنبية التي سكنت البلاد أو من المصريين الخلص لم يشكلوا في مجموعهم يوما أغلبية في مصر، وحتى زمن الفتح الإسلامي وبعده. فإن القوام الأساسي الذي تشكلت منه المسيحية في بداية عهدها كان من الجاليات اليهودية واليونانية المقيمة بمصر، إلا أنها ما انتحلت جميعها المسيحية وما ادعى أحد من المؤرخين ذلك وما يستطيع أن يدعيه.

فلما أن نعمت المسيحية بالحرية في بداية القرن الرابع وبدأت تنتشر بين قطاعات كبيرة من السكان الأصليين، حتى ظهر الشقاق بينهم والانقسام بين فريق يرى تأليه المسيح (عرفوا بالأرثوذكس) وآخر يرفض (عرفوا بالآريسيين) والذي كان ينتمي إليه أغلب الوطنيين وظل هذا الفريق الأكثر والأغلب طيلة القرن الرابع، حتى استنصر الفريق الأول بسلطان الإمبراطور، وحاول فرض مذهبه عليهم وعلى بقية أهل الأديان الأخرى من يهود ووثنيين.



ولكن الحال لم يدم طويلا، فما لبث أن وقع الشقاق بين هذا الفريق القائل بتأليه المسيح حول طبيعته، وانقسموا مرة أخرى فيما عرف بالملكانيين ( خلقدونيين أو كاثوليك) وأرثوذكس وكانت الأكثرية النسبية في مصر للفريق الثاني ثم ما إن دخل القرن السادس حتى انقسم هذا الفريق الأرثوذكسي حول ماهية جسد المسيح.

تقول بتشر (٢/ ٨٤): «وبعد موت تيموثاوس نشأ في الكنيسة شقاق جديد بين حزبين قويين....... وكانت من نتائجه أن أكثرية الشعب مالت إلى انتخاب ثيودوسيوس أحد رجال الحزب الأول...... واختار الحزب الثاني غنياس»[١].

ويذكر منسي أنهم انقسموا حينها إلى ثلاثة أحزاب لا اثنين كما تقول بتشر، وقد استمر هذا النزاع مائة وسبعين عاما أي ظل بعد الفتح الإسلامي حوالي خمسين عاما[٢].

ما ذكرناه وهو أعظم وأكبر الانقسامات التي كانت بينهم في ذلك الحين وإلا فهناك انشطارات أخرى كانت أقل عددا وأهون شأنا

[1] (٤٣) تاريخ الأمة القبطية (٢/ ٨٤).

[2] (٤٤) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسي ص (٣٦٦).

أعرضنا عنها مع العلم أنه كل حزب منهم يعتبر أمة وملة قائمة بذاتها، ولذا ترى كل أمة منهم يلعن بعضهم بعضا حتى إن يوحنا النقيوسي يصف الملكانيين (الكاثوليك) بالوثنيين. فلك أن تتخيل كم كانت نسبة أكبر طائفة من هؤلاء أن كانوا هم جميعا مجتمعين لا يشكلون أغلبية كاسحة بل ربما لا يشكلون الأغلبية المطلقة.

على أي حال فإن مجموع السكان الذين أخذت منهم الجزية، وكانوا يشكلون حوالي خمسة عشر مليونا كانوا يتألفون من : وثنيين، ويهود، ونصارى خلقدونيين، ونصارى غير خلقدونيين (أرثوذكس)، وهم أيضا منقسمون بدورهم إلى ثلاث فرق. بالإضافة إلى جماعات أخرى.

١ - فأما الوثنيين: فيقول الآثاري ستانلي بول : «وعلى الرغم من أن المسيحية كانت الديانة الرسمية في مصر منذ أصدر ثيودوسيوس مرسوماً سنة ٣٧٩م، كانت لا تزال هنالك طقوس محلية قديمة على جانب عظيم من القوة»[(١)]. ويحدثنا "آيدرس بل" أستاذ علم البرديات بجامعة أكسفورد عن عجز حملة الترويع للبابا كيرلس الملقب بعمود الدين عن القضاء على مدرسة الإسكندرية الفلسفية. فيقول :

---

(٧٢) سيرة القاهرة ص (٤٨).



«وظلت جامعة الإسكندرية حتى النصف الثاني من القرن الخامس تضم طائفة من الفلاسفة الوثنيين». وهو يستند في ذلك إلى وثيقة بردية تتحدث عن طرف من حياة هؤلاء الفلاسفة، وكيف أنهم تأصلت فيهم الروح القومية، على الرغم مما تمتعوا به من ثقافة هلينية، وكيف أنهم كانت لهم معرفة بالهيروغليفية اللغة المصرية القديمة بعكس هؤلاء الذين انتموا للمسيحية ولم تكن لهم معرفة بلغة الآباء من أهل البلد المصريين[1]. وهكذا في الوقت الذي كانت فيه الإسكندرية موطن الوثنيين من الفلاسفة ، كانت معابد فيلة في أقصى جنوب مصر موطن الوثنيين من عباد حورس حتى نهاية القرن السادس، وهكذا ظل الوثنيون لهم حضور بمصر، وكانت عبادتهم قائمة في سرية خوف من بطش المسيحيين. بل إن العبادات المصرية الفرعونية ظلت ال قائمة حتى عام ١٠٣ هـ[2] .

ويؤكد ذلك ما اتفق عليه أغلب المؤرخين من أن هؤلاء الوثنيين أرادوا تقديم القرابين للإله حابي رب النيل فيما يزعمون، فمنعهم عمرو

---

[1] (٨٩) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص (١٧٢، ١٧٤) وما بعدها.

[2] (١٠٥) هامش تاريخ البطاركة (٢/ ٩١).



ـ رضي الله عنه ـ . وكانوا يفعلون ذلك فيما عرف عندهم بعيد وفاء النيل، إذ كانوا يعتقدون أن النيل لا يفيض بالماء إلا إذا أُلقيت فيه القرابين (بغض النظر هل كانت فتاة تلقى في اليم بعد أن يلبسوها الزينة وهو الذي عليه أغلب المؤرخين، أم كانت أنواع أخرى من القرابين غير بشرية). فلما مُنِعُوا ظل النيل ثلاثة أشهر لا يجري قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء والرحيل. حتى ألقى عمراً فيه البطاقة التي أرسلها إليه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ وفيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك فعرَّفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة ثم ألقاها في النيل وقد تهيأ أهل مصر للخروج منها فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا في ليلة وقطع الله تلك السنة السوء عن أهل مصر. فكان ذلك بمثابة آية لأهل مصر على صدق الإسلام، والتوكل على الله، فدفعت الكثير من أولئك الوثنيين للإسلام.

والمقصد هو أن العبادات الوثنية كانت حاضرة، وأهلها حاضرون يقيمون أعيادهم، ولا تستطيع قرارات الإمبراطور أن تمنعهم. برغم مرور ما يقرب من مائتين وخمسين عاما على حظرها.



٢- وأما اليهود : فإنه كان من شروط صلح الإسكندرية السماح لليهود بالإقامة فيها[1].

ويذكر المؤرخ يوسفيوس أن مصر في زمن فلاكوس عام ٣٨م كان بها أكثر من مليون يهودي، كما أنه في عام ٧٠م سيق ما يقرب من سبعة وتسعين ألف يهودي إلي مصر، ثم تبعهم عدد غفير رجاء أن يجدوا عونا لدى يهود مصر الأغنياء[2]. هذا وقد قدر عدد سكان مصر وقتها ٧.٥ مليون نسمة؛ بالإضافة إلى نصف مليون كانوا يشكلون سكان الإسكندرية. أي أن اليهود كانوا يمثلون وقتها نسبة تقارب العشرين بالمائة من سكان البلاد؟

فإذا كان سكان مصر قد تضاعفوا أكثر من ثلاث مرات في مدة ستمائة عام، فإنه يمكن القول بأن اليهود قد حافظوا على عددهم خلال هذه الفترة، والذي يدفعنا للقول بهذا، ولا نقول أنهم تضاعفوا كبقية شعب مصر، هو أن الكثير منهم قد تحول للنصرانية، على فترات، كما أنهم قد نالهم الكثير من عمليات القتل والذبح على أيدي النصارى،

---

[1] (٤٦) فتح العرب لمصر ص (٣٤٣).

[2] (٤٤) تاريخ الأمة القبطية لبتشر (١/ ٨، ٣٨).



وبخاصة بعد أن طرد هرقل الفرس من فلسطين ومصر، ورأى ما فعلوا وحفزه النصارى على قتلهم، وقرروا أن يصوموا أسبوعا تكفيرا عن يمين هرقل أبد الدهر، وهو الأسبوع الذي يقع في أول الصيام الكبير لهم.

المقصد أن اليهود كان لهم تواجد ضمن التركيبة السكانية لمصر، ولكنها بعد أن كانت تشكل نسبة تقارب العشرين بالمائة، هبط لتدور حول الستة بالمائة. فقد ورد أن الإسكندرية التي كان بها ثلاثمائة ألف يدفعون الجزية كان منهم أربعين ألفا من اليهود. أي بما يقترب من نسبة أربعة عشر بالمائة من السكان[1]. مع الأخذ في الاعتبار أن الإسكندرية كانت من المدن التي يتركزون بها.

٣- أما النصارى الخلقدونيين (الملكانيين أو الكاثوليك) وهم الذين يصفهم الأرثوذكس بالروم أو الأجانب أحيانا، وهذا صحيح من جهة المذهب الديني، ولكن من الناحية العرقية فبالتأكيد بجانب الروم، كان منهم من ينتمي من جهة الأصول للإغريق واليهود والسكان الأصليين (المصريين) وغيرهم، وإن كانت الغلبة العرقية للروم. ويقول

---

(٧٥) راجع تاريخ المسيحية الشرقية ص (١٠٣).



بتلر : «ورد ذكر الملكانيين وأن عددا كبيرا منهم كان باقيا في مصر إلى ما بعد الفتح بخمسين عاما. وعلى هذا لا بد لنا من أن نقول إن المذهبين كليهما قد بقيا جنبا إلى جنب في مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونهما جميعا بحمايتهم»(١).

وعندما تعلم أن مصر في عهد أوكتافيانوس كان بها ما يزيد على اثنين وعشرين ألف جندي وأنه انخفض في بعض الأوقات إلى ١٦ ألف و١١ ألف ؛ فلك أن تتخيل كم أولئك الجنود الغرباء الذين استوطنوا مصر على مدار ما يقرب من سبعمائة عام (٣٥٠ عام تقريبا من حكم الرومان، ٣٢٥ عام الحكم البيزنطي)[٢] إذ كان الجندي بعد أن يقضي حوالي ربع قرن في الخدمة يقوم بالتوطن في البلاد وشراء الأراضي وربما الزواج أيضا في أثناء الخدمة إلا أن الاعتراف القانوني كان يتم بعد الانتهاء من الخدمة بالجيش. وقد كانت هذه الطائفة بلاشك هي أسعد الناس حالا طوال هذه الفترة، وهذا بالتأكيد ساهم في أن تكون أكثر

---

(٧٦) فتح العرب لمصر ص (٤٦٢-٤٦٣).

(٧٧) راجع مصر في عصري البطالمة والرومان لأبواليسر فرج ص (١٦٣، ٢٢٠ وما بعدها).






نموا من سائر الطوائف. وهم الذين ظلوا مقاومين للفتح الإسلامي حتى آخر لحظة.

وهم الذين دعاهم المقوقس إلى مصالحة المسلمين على دفع الجزية فأنفوا، يقول يعقوب نخلة: إن المقوقس حين دعا قومه لمصالحة المسلمين على دفع الجزية قالوا له على وجه الإنكار: سنكون عبيدا لهم فأجابهم بقوله: نعم تكونون عبيدا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم[1].

ولا يأنف من دفع الجزية إلا من لم تكن هناك جزية مقررة عليه أصلا، وهذا كان حالهم، وحال الإغريق، بغض النظر عن المذهب الديني الذي ينتحلونه. وهو ما يكشف عن الهوية العرقية لمنتحلي النصرانية الغاضبين من أقرار الجزية عليهم.

وهم الذين نقضوا بعد ذلك صلح الإسكندرية، وراسلوا قسطانز حفيد هرقل، فأرسل لهم أسطولا بحريا، وجيشا بقيادة مانويل الخصي، واحتل الإسكندرية، وقتل حاميتها المؤلفة من ألف جندي، وهم الذين ثاروا في مصر السفلى في قرى بلهيب وسخا وسليطس. وقد ذكر

(٧٨) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ص(٤٣-٤٤).



الشماس منسي أن أهل سليطس كانوا خلقدونيين.[١] وهؤلاء حين قهرهم عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ وفتح تلك الديار عنوة وكذا الإسكندرية، وهو الفتح الثاني لها. عفى عنهم بأمر من الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فالمقصد أن تلك الطائفة كان لها وجود وحضور قوي بأرض مصر زمن الفتح، وبعده بفترة من الزمن، ولم يقل عددهم إلا بعد خروج البطرك بنيامين من مخبئه، وكان هذا في العام الثالث من دخول عمرو بن العاص مصر، وذلك حين تم فتحها بصلح الإسكندرية، الذي نقض على الصورة التي ذكرناها آنفا. ثم بعد ذلك لما رأى البطرك الملكاني أن السلطان لم يعد له كما كان من قبل رحل من البلاد، وظل الكرسي الكاثوليكي خاليا مدة اثنين وعشرين عاما[٢]، وهذا ساهم في تحول الكثير منهم للمذهب الأرثوذكسي، كما تحول بعضهم للإسلام.

يقول سعيد بن البطريق: «كان كرسي الإسكندرية بغير بطرك

---

(٧٩) تاريخ الكنيسة القبطية ص (٣٨٥).

(٩٧) ذكرت بتشر أن هذا الكرسي قد ظل خاليا مدة ستين عاما ، تاريخ الأمة القبطية (٢/ ١٥٠).



ملكي مدة سبعة وتسعين سنة فغلبت اليعقوبية (يعني: الأرثوذكس أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) على جميع الكنائس بمصر والإسكندرية، واحتاجت النوبة إلى أساقفة فأصلح لهم بطريرك اليعقوبية أساقفة. فصارت النوبة منذ ذلك الوقت يعقوبية، وكان كلما مات أسقف مدينة من مدن مصر صير عليها بطرك اليعقوبية أسقفا، فصارت مصر علوها وسفلها يعقوبية ما خلا كنيسة ميكائيل التي في قصر الشمع».[١]

٤ - النصارى الأرثوذكس:

كانوا في طريق الاضمحلال، وعلى وشك الاندثار، وحافة الهلاك، هكذا وصفهم المؤرخون لهذا العصر. وكانت الصراعات قد أنهكتهم حتى كادت أن تأتي عليهم. فيذكر يعقوب نخلة : أن الصراعات بين الفرق المسيحية في مصر خاصة :« أدت بهم ولا سيما الأقباط إلى الاضمحلال والدمار».[٢] وهكذا فإن مذهبهم قد بات صريعا لا تكاد الحياة تدب فيه، فعادت إليه الحياة من جديد في جو الحرية الدينية الذي

---

(٨١) نظم الجوهر ص (٣٨٦). لسعيد بن البطريق الملكاني.

(٨٢) تاريخ الأمة القبطية ص (٢٨) ليعقوب نخلة.

أشاعه عمرو رضى الله عنه.[١]

ولكن هذا لم يتم إلا بعد ثلاثة أعوام من دخول عمرو ـ رضي الله عنه ـ لمصر، حين تم الفتح بصلح الإسكندرية فحينها ظهر بنيامين، وبدأ في لم شمل أتباعه.يقول ألفرد بتلر: «لقد كان لعودة بنيامين أثر عظيم في حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته، إن لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة (الأرثوذكسية) قبل الضياع والهلاك»[٢].

ويصور لنا يعقوب نخلة ذلك الهلاك بقوله: «جاء في بعض التواريخ أنه قتل في يوم واحد من الأقباط بمدينة الإسكندرية مائتا ألف نفس وإن كان هذا لا يخلو من المبالغة في القول والمغالاة في النقل إلا أنه يدل على شدة اضطرام نار الفتنة ..... وربما كان هذا عدد جميع الذين قتلوا من الأقباط في كل أنحاء مصر ........وهو عدد ليس بقليل»[٣]

وهكذا كان المسيحيون المثلثين المنتحلين مذهب الطبيعة الواحدة أكثر

---

(٨٣) انظر فتح العرب لمصر ص (٤٥٤، ٤٥٥).

(٨٤)فتح العرب لمصر ص(٤٥٧). وانظر "وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها" ص (٦٧).للراهب أنطونيوس.

(٨٥) تاريخ الأمة القبطية ص (٢٨).



الطوائف معاناة، ولم ينقذها سوى الفتح الإسلامي يقول جاك تاجر:« وفعلا بعثت الكنيسة اليعقوبية من جديد وقويت تحت حكم عمرو بن العاص ، واعتقدوا بأن نصر المسلمين سيعيد للمسيحية، أو بالأحرى ـ إن أردنا الدقة في التعبير ـ لمذهب الطبيعة الواحدة سطوته الماضية» [١] وبهذا يمكن أن تتخيل كم كان هذا المذهب يمثل نسبة من سكان مصر، فإن مدينة الإسكندرية لم يكونوا بها إلا فئة قليلة ضائعة بين أهلها الكثيرين لا يحس أحد بهم[٢]. وكان حالهم كذلك في العديد من مدن الوجه البحري كبلهيب وسخا وسليطس وغيرها. إضافة إلى انقسامهم إلى ثلاثة فرق حول ماهية جسد المسيح كما ذكر منسي وغيره.

وعليه فيمكن أن نقول أن نسبة كبيرة من دافعي الجزية كانوا من الوثنيين الذين ما لبسوا إلا قليلا حتى دخل الكثير منهم في الإسلام؛ لما رأوا فيه من أمارات الحق، وآيات الصدق. ثم توالى بعد ذلك دخول أهل الملل النصرانية على فترات متباعدة.

---

(٨٦) أقباط ومسلمون لجاك تاجر (١٨) .

[2] (١٠٤) انظر تاريخ مصر للنقيوسي ص (٢١٠) ، وفتح العرب لمصر لألفرد بتلر ص (٣٣٧).

فلا عجب أن النصارى اليوم أقلية لا تتجاوز نسبة الستة أوالسبعة بالمائة؛ ما دام هذا هو حالهم منذ أن دخلت المسيحية مصر. والذي حافظ على نسبة النصارى وزيادتها عما كانت عليه حين فتح مصر، بالرغم من دخول كثير منهم من أهل البلاد في الإسلام، يرجع إلى أمور؛ الأول : أن كثير ممن تركوا المذهب الأرثوذكسي خوفا من بطش الرومان نتيجة اضطهادهم لهم، قد عادوا إليه بعد الفتح الإسلامي نظرا لم عمهم به من الأمن.

الثاني: تحول الكثير من أهل المذهب الملكاني إلى المذهب الأرثوذكسي نتيجة لغياب بطرك الملكاني بمصر.

الثالث: الجاليات الأجنبية التي كانت تستقر بمصر نتيجة لقدومهم كأسرى حرب، كما مر آنفا، وهذا كان هو السبب في انتشار عادة التسري بينهم في عهودهم الأولى التي كانت بعد الفتح، والتي كان يتغاضى عنها رجال الدين أحيانا، وينكرونها أحيانا مما كان يؤلب عليهم بعض رعيتهم التي ما كانت تألوا في إثارة المتاعب عليهم.

الرابع : استخدامهم للإكراه المادي تجاه الفرق النصرانية الأخرى كالغانانيين، والبرسنوفيين ، والتاوضوسيين وتحويلهم قصرا لمذهبهم

الأرثوذكسي.

هـذا وبعـد أن ابطلنـا كلتـا الفـريتين مـن جهـة النظـر التـاريخي ، فلنوضح بطلانها أيضا من جهة الضرورة العقلية.

* * * * *






# الباب الرابع

الفصل الأول : في بيان بطلان دعاوى النصارى بما تقتضيه الضرورة العقلية.

الفصل الثاني : في الكلام على الجزية ومقدارها، وأنها لم تكن أمرا مستحدثا ، بما ينفي كونها تحقق إكراه مادي أو معنوي.

الفصل الثالث : في بطلان دعوى الإكراه.





# الضرورة العقلية تبطل دعاوى مبتاعي الفتن

قد كان الأمر يهون لو أن تلك الأباطيل تدور في أوساط البسطاء والسذج، فكل أمة فيها من هؤلاء نصيب، وليس هم من يعول عليهم، أو من تحاسب بهم فئتهم فيحسبون عليها. ولكن الذي طم هو أن الأمر لم يقتصر على الأصاغر من أمثال عزت أندراوس صاحب ما يسمى بموسوعة تاريخ القبط، حيث وصف الفتح الإسلامي بأنه استعمار إسلامي استيطاني، فيقول: احتلال العرب المسلمين (عمرو بن العاص)، احتلال الأمويين المسلمين، وهكذا، ثم يقول : «ولوحظ أيضاً أن المسيحيين البيزنطيين عندما استعمروا مصر كان لهم أتباع من المصريين وهم خليط من أبناء البيزنطيين والأقباط وكانوا خونة لمصر يميلون لدين المستعمر البيزنطي فأطلق عليهم الأقباط الوطنيين الأصلين[1] اسم "الملكيين" أي التابعين للإمبراطور المحتل لمصر ، وعندما احتل العرب القرشيين المسلمين[2] فانضم إليهم الفقراء الذين

---

[1] (١٢٤) كذا بالأصل؛ والصواب : الوطنيون الأصليون.

[2] (١٢٥) كذا خطها بيده؛ والصواب : القرشيون المسلمون.



لم يقدروا على دفع الجزية أو الذين قتل العرب رجالهم وأخذوا نساءهم فيئه وسرارى وأطلق على الهجين بين العرب المسلمين والأقباط اسم "الموالي"» .

ثم يمضي المدعو في ترهاته فيقول: «ولن تجد فرقاً عزيزي القارئ بين الملكيين والموالى بالنسبة لانتمائهم لمصر، فالذي يبيع عقيدته وفكره من أجل المال، (هكذا يزعم الكذاب الأشر) سيبيع مصر حتماً لنفس السبب لأنه باعها أصلاً لمحتل استعمر وطنه وأرض أجداده».

ويكمل الحاقد واصفا الإسلام بالوحشية، وحكمه بشريعة الاحتلال، قائلا: «ومما يحزن النفس أن استعمار مصر بأجناس الأمم التي استغلت وحشية الإسلام قد انتهى ولكن ظلت فكرة الاستعمار قائمة دائمة على صدر مصر من خلال الدين الإسلامي وتطبيق شريعة الاحتلال الإسلامي التي يطلق عليها اسم الشريعة الإسلامية».اهـ

وقد كان بإمكاننا التغاضي عن مثل ذلك العواء، ولكن الذي طم هو أن نحوا من تلك المقولات قال بها كبراؤهم ومقدميهم. فكاهن الكنيسة المعلقة لا يكف عن الثرثرة بأن المسلمين غزاة، وقد ذكر هذا في برنامج تليفزيوني وفي حضور الدكتور عبد المنعم سعيد، والشيخ فوزي

الزفزاف[1]. وتبعه بنحو من مقولته أسقف القوصية، في محاضرته الشهيرة أمام معهد هدسون الأمريكي، ولم يجد أحد من قومه ينهاه أو يزجره، بل إذا بعضو المجلس الملي ثروت باسيلي يقول أن ما ذكره الأنبا :" حقائق تاريخيه". وكذا قالت مطرانيته في معرض دفاعها عن أسقفها. وهكذا قال الأنبا بسنتي في حواره مع المصري اليوم بتاريخ ١١/ ١١/ ٢٠٠٩. وسبقه أسقف شبرا الخيمة الأنبا مرقص في تصريحات لجريدة المصري اليوم ١٩/ ١/ ٢٠٠٧ ذاكرا أنهم أبناء البلد وأصحابها. فلما كان الأمر على تلك الصورة لم نجد بدا من بيان الحق، على نحو ما قدمنا. وأن نزيد ببيان بطلان هذه الأقوال من جهة الضرورة العقلية.

فحقيقة إن مثل تلك الأقوال لا ينبغي أن تصدر من صاحب عقل سديد، إذ أن المسلمين العرب لو أن جميعهم رجالا ونساءً وأطفالا وشيوخا رحلوا عن ديارهم دون أن يتخلف منهم واحد ونزلوا بأرض مصر ما كان لهم أن يشكلوا أغلبية فيها من جهة الجنس والعنصر، ولو

---

[1] (٥٩) تجده على هذا الرابط

http://www.youtube.com/watch?v=N2VEeUFFrsU&feature=related

أنهم اختلطوا بأهل مصر لذابوا في أهلها ولصاروا مصريين، هذا إن افترضنا اختلاف العنصر والعرق، فأهل مصر كما تقدم كانوا على الأقل أربعة وعشرين مليونا. وأما سكان الجزيرة العربية المسلمون ، فعلى أحسن الأحوال لن يفوقوا المليون إلا بقليل.

فقد جاء في كتاب السكان في العصر الوسيط والقديم لجوسيا كوكس رسل أن سكان الجزيرة العربية في ذلك التوقيت كانوا يبلغون المليون.[1]

وقد روى الخطيب البغدادي عن أبي زرعة الرازي قال: « قبض رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشرة ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه. فقال له رجل يا أبا زرعة، هؤلاء أين كانوا وسمعوا منه؟ قال: أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما والأعراب ومن شهد معه حجة الوداع، كل من رآه وسمع منه يعرفه»[2]. وقد جزم بهذا العدد الحافظ جلال الدين السيوطي في الخصائص الكبرى.

---

(٨٨) انظر المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي ص (٤٤)، لفيليب فارج، ويوسف كرباج.

(٨٩) الجامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢٩٣).



وجاء في مناقب الشافعي للساجي عن الشافعي قال:« قبض النبي ﷺ والمسلمون ستون ألفا ثلاثون في المدينة وثلاثون ألفا في قبائل العرب وغيرها». قال صاحب الشذا الفياح: إسناده جيد[١].

وعن أحمد فيما رواه البيهقي من طريق إبراهيم بن علي الطبري عنه قال: «قبض النبي ﷺ وقد صلى خلفه ثلاثون ألف رجل وكأنه عني بالمدينة ليلتئم مع ما قبله»[٢] .

وروى الحاكم في الإكليل من حديث معاذ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفا». وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة. أي قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بأقل من عامين.فإذا أضيف إلى هذا العدد النساء والصبيان والعجزة وأهل البوادي والأماكن البعيدة عن المدينة الذين لم يخرجوا في تلك الغزوة، أعطاك صورة تقريبة لعدد المسلمين لا تختلف كثيرا عن ما ذكره الحافظ أبو زرعة.

وقال ابن فتحون في ذيل الاستيعاب بعد إيراده لقول أبي زرعة: هذا

---

(٩٠) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح (٢/ ٥٠٥). وفتح المغيث للسخاوي (٢/ ١٢٢).

(٩١) فتح المغيث (٢/ ١٢٢).

أجاب به أبو زرعة سؤال من سأله عن الرواة خاصة فكيف بغيرهم؟ انتهى(١).

فعلى قول ابن فتحون هناك من المسلمين من رأى النبي ﷺ ولم يرو عنه، ولم يدخلوا فيما يمكن أن نطلق عليه إحصاء الإمام أبي زرعة، وكذا هناك من أسلم في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يره وهم من يطلق عليهم المخضرمين، وهؤلاء لم يكونوا بالنسبة الكبيرة بالتأكيد. لما جبلت عليه النفوس من الحرص على مشاهدة الفضلاء من الناس؛ فما بالك إن كان سيد ولد آدم وخاتم المرسلين؟.

فإن افترضنا أن عدد المسلمين كان على ضعف هذا الرقم حين وفاته ﷺ، إضافة لمن أسلم من العرب خلال العشر سنوات التي تلت وفاة النبي ﷺ وحتى فتح مصر فكي نصل للرقم الذي ذكره جوسيا وهو المليون لا بد للمسلمين أن يتضاعفوا بمقدار مراتين خلال تلك السنوات العشر. وهذا حقيقة أمر صعب الحدوث في عالم الواقع، ولكن حتى على فرض تصوره، فلا يمكن لذلك العدد الذي تجاوز المليون بقليل أن يحدث ذلك التغيير الديموغرافي في التركيبة السكانية لشعب

---

(٩٢) فتح المغيث (٣/ ١٢١).

يفوقه بمقدار أربعة وعشرين مرة، هذا على افتراض أن سكان الجزيرة العربية كلهم عن بكرة أبيهم تركوا ديارهم ونزلوا بأرض مصر، وهذا لم يقع بالطبع. وعند هذا الحد نترك الأمر لأصحاب العقول لتحكم على تلك المقولات المتعصبة التي أوردناها آنفا، أما من رضي بأن يغيب عقله ويحكمه التعصب الأعمى فلو ءآتيته بكل آيه أو برهان ما تبع إلا ما استقر في عقله المغيب. وما رضي إلا بما يوافق عصبيته.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋



# الفصل الثاني

## الجزية قبل الفتح الإسلامي وبعده

وأما القول بأن الجزية هي التي أحدثت ذلك التحول فتلك وقاحة زادهم في الاستدلال عليها الكذب، أما الوقاحة فلا نرد عليها، فإن صاحبها بحاجة للتأديب، وأما الكذب فكتب التاريخ تحكى أن الجزية التي كانت تجبى من مصر أيام هرقل قبل الفتح الإسلامي كانت عشرين مليون دينار، في حين أن الجزية التي جمعها عمرو بن العاص كانت اثني عشر مليونا[1]، فأي إرهاق أصاب الناس إذن حتى يتخلوا عن دينهم الذي كانوا يعذبون عليه فما يرجعون عنه.

يقول فيلون المؤرخ اليهودي: «إن جباة الضرائب كانوا يستولون على جثة العاجزين عن سداد الضرائب حتى يُكرِهوا ذوي قرباه على دفع الضرائب المتأخرة عليه؛ استنقاذًا لجثته، كما ذكر أن الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقرباء كانوا يحشرون إلى السجون، ويُصَبُّ

(٩٧) تاريخ المسيحية الشرقية ص (١٠٧).



عليهم التعذيب حتى يصل الرومان إلى المفلس الهارب، فكان يحدث أن يهرب الأهالي من مدن برمتها»[1].

ويقول ألفرد بتلر في كتابه غزو العرب لمصر: «إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد» ويقول: «مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل». ويقول أيضا :« كان الروم يجبون من مصر أموالا يتعذر علينا أن نعرف مقدارها، ولكنها كانت بلا شك

---

(٩٨) انظر مصر في عصري البطالمة والرومان ص (٢٠٥).

بالتتبع والملاحظة نرى أن ما كان يفعله الرومان بهم قد اقتبسوه ورموا به المسلمين ، وما فعله الفرس معهم من قتل وتنكيل وتشريد وهدم للكنائس والأديرة ، قد رموا به المسلمين أيضا، والناظر لروايتهم لأحداث الغزو الفارسي معهم لا ينتبه شك في أن كاتب هذه الأحداث قد استعار ما فعله بختنصر مع اليهود ثم أنزله في حق نصارى مصر. والمتتبع لكتب التاريخ النصراني يجد أمرا عجبا ؛ فهم يقتبسون ما يشاؤون من التاريخ السابق ثم ينزلونه في حق من شاؤوا، حتى في قصة ميلاد المسيح مع هيرودوس قد اقتبسو من قصة موسى عليه السلام مع فرعون مع إجراء التعديلات المناسبة عليها. مع أن المفترض في اعتقادهم أن المسيح إله فالمفترض ألا نظير له ولا شبيه . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن.

كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة شديدة الأذى».[1] فأي جزية هذه التي أكرهت الناس على ترك دينهم؟!!، وهي بإجماع المؤرخين كانت أقل من مما كانوا يؤدونه في السابق.

يقول يعقوب نخلة :«ضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وجعله على أقساط في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد،........... وبالجملة: فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان»[2].

وهذا ما أكدته وثائق البردي؛ من أن الجزية كانت تجمع على أقساط، بل وربما كانت تؤجل بعض الأقساط للأعوام التالية، فإن كانت حالة السكان حسنة وفي رخاء لم يتراخى في جمعها[3]. فجاء في كتاب قرة بن شريك لأهل شبرا بسيرو :«أنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمنين مائة دينار وأربعة دنانير وثلثي دينار عددا، ..... ، كتب

---

(٩٩) فتح العرب لمصر ص (٣٥٩).

[2] (١٠٠) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة ص (٥٦، ٥٧).

[3] (١٠١) لمراجعة النصوص الدالة على ذلك انظر أوراق البردي العربية لأدولف جروهمان ص (٣/ ١٤، ١٩٨ وما بعدها، ٣/ ٤٨، ٤٩).

راشد في صفر سنة إحدى وتسعين»[1] فانظر كيف أجلت أقساط الجزية ثلاثة أعوام.

ومن الجدير بالذكر أن قرة بن شريك قد وَلِيَ مصر في الفترة من عام ٩٠هـ وحتى عام ٩٦هـ. في زمن أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وقد شهد عهد قرة هذا تحول أعداد كبيرة من المصريين للإسلام، الأمر الذي ساء الأسقف ساويرس بن المقفع، فدفعه لشن حملة شرسة على قرة في كتابه سير البيعة المعروف بتاريخ البطاركة، متهما إياه بحب المال والتشدد في جمع الضرائب وفرضها للحد الذي كان يدفع الناس للهروب من الأرض وتركها. ليوهم القارئ بأن ذلك هو السبب وراء انتحال المصريين للإسلام. ولكن شاءت إرادة الله العلي القدير أن يحفظ لنا بعضا من الرسائل والوثائق التي كان يرسلها قرة بن شريك إلى عماله بمصر حتى ينكشف لنا الحق، ونعلم ما كان يأمر به عماله من إقامة العدل و تحذيرهم من ظلم الرعية ففي رسالة له إلى صاحب قرية أشقوة بصعيد مصر يقول فيها : فإني قد أمرت أصحاب الأهراء[2] أن يتوفوا

---

[1] (١٠٣) انظر أوراق البردي لجروهمان المجلد الثالث.

[2] (١٠٤) الأهراء جمع هري وهو بيت كبير ضخم يجمع في الطعام. لسان العرب

من أهل الأرض كيل الرزق، ولا يزيدوا عليه شيئا، وتقدمت إليهم ألا يكتالوا كيل الديموس[1] وقطعت ذلك من أهل الأرض. فمر القبالين فليكتالوا بالقنفل ثم اجعل عندك قنفلا عدلا تجرب به ما يستوفي القبالون من أهل القرى. أقول: فتأمل كيف يأمر عماله بالعدل، ثم انظر ما جعله عاقبة وعقابا لمن ظلم أهل الأرض، فتأمل بقية رسالته، يقول : وإن وجدت أحداً من القبالين اعتدى على أهل الأرض في الكيل أو ازداد على الذي فرضت له شيئا فاجلده مائة جلدة واجزز لحيته ورأسه وغرمه ثلاثين دينارا بعد أن تغرمه ما ازداد على ما أمرتك به. واعلم أني إن أجد أحداً من القبالين اعتدى على أهل الأرض في الكيل أو أخذ منهم فوق الذي أمرت له به يبلغك مني ما يضيق عليك أرضك فاكفني أمر ما قبلك واتق الله فيما تلي فإنما هي أمانتك ودينك ثم احجر عمالك ونفسك عن ظلم أهل الأرض فإن الأرض لا صبر لها على الظلم ولا بقاء، وإذا أتى أهل الأرض الظلم والإضاعة من قبل من يلي أمرهم فإن ذلك خرابهم وتعهد أمر ما قبلك ولا تكلن أمانتك وما تلي إلى أحد

[1] (١٠٥)هو مكيال فيه خفاء ولا يهتدى لوجهه، فيعسر على الفلاح ضبطه؛ فمن ثم يمكن للقبال أن يخدعه.

سوى نفسك فإن المحسن معان بأرضك في عمله »[1] وقد حرر هذا الخطاب في شوال من سنة إحدى وتسعين. ومن الواضح من خلال الرسالة أن عامله هذا كان مسلما وأن الذين يحذر قرة من ظلمهم ويتوعد عامله بالعقوبة إن وقع عليهم الظلم هم من غير المسلمين.

أما برديات الفيوم فجاء فيها ما يفيد الأمر بالرفق في جمع الزكاة من المسلمين؛ وكذا الرفق بأخذ الجزية من غيرهم؛ وإمهال المعسر منهم. فعجبا من هذا الظلم في رأى ساويرس الذي وجد أنه حمل المصريين على الإسلام فرارا منه.

فإن كان ساويرس خط ما خط في إطار اللاهوت الدفاعي فله هذا؛ فهو رجل دين يسعى من خلال كتابه إلى غرض ديني بحت هو تمجيد الدين المسيحي والاشادة بمذهبه الأرثوذكسي. أما أن يعتبر كتابه تأريخاً فإنه بعد الكشف عن تلك الرسائل الإدارية لهذا العصر تجعل مصداقيته على المحك، فإنها تكشف عن تحامل واضح وبعد عن الإنصاف والحياد العلمي الذي ينبغي أن يكون عليه المؤرخ. وكان ينبغي أن يتحلى به كرجل دين من باب أولى.

---

[1] (١٠٦) بيكر ص (٧٠)

## الجزية لم تكن أمرا مستحدثا

كما أن الجزية أو ضريبة الرءوس ليست اختراعاً إسلامياً بل هى نظام مألوف لدى جميع الشعوب في هذا الزمان، وكان معمولا به في كل الشرائع القانونية القديمة والحديثة على السواء رغم اختلاف المسميات. وما سقط هذا النظام إلا بعد قيام الثورة الفرنسية. فما كان أمر الجزية ليغضب أحد من هذه الشعوب إلا الذين لم تكن الجزية مفروضة عليهم من الجاليات الرومانية والمستوطنين اليونان.

بل إن النصوص الدينية لدى أهل الكتاب قد أقرت أمر الجزية على الشعوب المسيحية، وجعلتها من جملة الحقوق الواجب أدائها يقول بولس في رسالته لأهل رومية (١٣/ ١٧): (فأعطوا الجميع حقوقهم.الجزية لمن له الجزية.الجباية لمن له الجباية).

يقول يوحنا الذهبي الفم: « أن بولس قد حوّل ما يراه الكثيرون ثقلاً إلى راحة، فإن كان الشخص ملتزم بدفع الجزية إنما هذا لصالحه، لأن الحكام هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه، يسهرون مجاهدين من أجل سلام البلد من الأعداء، ومن أجل مقاومة الأشرار كاللصوص والقتلة. فحياتهم مملوءة أتعاباً وسهر. بينما تدفع أنت الجزية لتعيش في

سلام يُحرم منه الحكام أنفسهم. هذا ما دفع بولس أن يوصينا لا بالخضوع للحكام فحسب وإنما بالصلاة من أجلهم لكي نقضي حياة هادئة مطمئنة».ويقول يعقوب ملطي : «فما نقدمه من جزية أو تكريم للحكام ليس هبة منّا، وإنما هو إيفاء لدين علينا، هم يسهرون ويجاهدون ليستريح الكل في طمأنينة»[1] . وهذا ينفي حدوث الإكراه المعنوي الناتج عن فرض الجزية ، كما يصور الآن. فهي كانت واجب ديني تقره شريعتهم. بل إن كتاب المقدس لدى شركاء والوطن قد أجز أخذ الجزية من المخالفين كما في سفر يشوع ١٦ / ١٠ ، و سفر صموئيل الثاني ٨ / ١-٢ ، و سفر القضاة ١ / ٢٨ ، و سفر التثنية ٢٠ / ١٠، وقد مر آنفا أنهم يقرون بأن المسيح عليه السلام قد دفع الجزية للوثنيين.

* * * * *

---

[1] (١٣٧) من تفسير وتأملات الآباء الآولين- الرسالة إلى رومية - للقمص تادرس يعقوب ملطي ص (٢٦٥، ٢٦٦).



# الفصل الثاني

## بطلان دعوى الإكراه

وكذا فإن القول بالإكراه قول باطل نافق، فبإجماع المؤرخين أيضا أن الناس قد أعطيت لهم الحرية الدينية، على عكس ما كان في السابق قبل الفتح الإسلامي، يقول يوحنا النقيوسي : «وبعد الهزيمة التي مني بها الروم ورحيل جيشهم عن مصر، غدا القبط في مأمن من الخوف، وبدءوا يشعرون بالحرية الدينية»[١].

أما عن الأحوال قبل الفتح الإسلامي، فيحكي بتلر عن تعذيب أخي بنيامين البطرك الهارب من وجه قيرس: «أن المشاعل أوقدت وسلطت نيرانها على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهن جنبيه إلى الأرض. وخلعت أسنانه، ثم وضع في كيس به رمل وحمل في البحر»[٢].

---

(٩٦) تاريخ النيقوسي ص (٦٤).

(١٠٨) سير البطاركة لساويرس بن المقفع (١/ ٥٧٣)،و فتح العرب لمصر ص (٢١٧).

ويقول عما كان يلقاه عامة الجمهور المسيحي : «كان حظ من يأبى أن يتخلى عن عقيدته أو يشك قيرس في أمره أن يجلد ويعذب أو يلقى به في السجن أو يلقى الموت». ويقول أيضا : «كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون في أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذا»[1]. فأي إكراه أشد من هذا فعله المسلمون؟ بل وأي إكراه كان يمكن فعله أشد من هذا، حتى يتحول الناس عن دينهم، ويخلع الرهبان من أجله رداء الكهنوت؟!!

فضلا عن أن الحصافة السياسية كانت لابد من أن تحمل المسلمين على معاملة أهل البلد بالحسنى حتى لا يثوروا عليهم وهم قلة في وسط هذا البحر من السكان، فتخيل لو أن الأربعة عشر مليونا قد ثار نصفهم بل ربعهم بل سدسهم بل نصف السدس أي مليونين فقط، إن هذا العدد لا يمكن أن يواجهه جيش قوامه ستة عشر ألف أو حتى مثليه، وهذا أمر مشاهد في الواقع.

فحالة الضعف الديموغرافي البالغ لعدد المسلمين كانت تدفعهم للاستناد إلى السكان المحليين بدلا من الدخول في صدام سافر معهم.

---

(١٠٩) فتح العرب لمصر ص (٢٢١).

هكذا هي ضرورات السياسية بغض النظر عن الالتزام بأخلاق السماحة و الرحمة والعدل التي يفرضها الدين. ولهذا فإن سعيهم لنشر الإسلام مع ما كان عليه حالهم كان لابد أن يكون بالحسنى.

وهذا ما تؤكده أقوال المؤرخين ؛ يقول يعقوب نخلة : «ولما ثبت قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه واكتساب ثقتهم به وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه وإجابة طلباتهم».[1]

وتلك السنة هي التي استمر عليها ولاة المسلمين من بعد عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ مما حدا بالنصارى للحزن والأسف على وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك «لأنه لم يميز في أحكامه بين مسلم ونصراني ويهودي وكان يشدد على الولاة في جميع الولايات التابعة له بإنتهاج منهج العدل في أحكامهم وإنصاف المظلوم بصرف النظر عن الدين والجنسية».[2]

ولكن من طمس التعصب عقله لايدري ما يقول فتراه يسب

---

[1] (١١٢) تاريخ الأمة القبطية ص (٥٤).

[2] (١١٣) المصدر السابق ص (٧٤).



عشيرته وقومه فقد ذكر ألفر بتلر أن: ( بنيامين سَعِدَ كثيرًا بعمرو) .
فهل كان البطرك أيضا ممن خانوا وطنهم وباعوه؟!، على حد دعوى المدعو أندراوس. بل إن هذا العمى أوقعهم في تكذيب رب العالمين ـ على حسب اعتقادهم ـ فقد ورد عند ساويرس بن المقفع أن ملاك الرب أخبر البطرك بنيامين بأن العذاب الذي هم فيه سيرتفع بعد عشر سنوات، فهل هذا ما حدث مع الفتح الإسلامي، ووقع الأمن والأمان وصدق ملاك الرب؟ أم يرى هؤلاء أن ملاك الرب كذب على البطرك، أم أن البطرك كذب عليهم؟.

وهكذا فإن القول بأن الجزية أو الإكراه هما اللذان حملا أهل مصر على قبول الإسلام ما هو إلا دعاية كاذبة كالتي يروجونها اليوم عن خطف الفتيات وإجبارهن على الإسلام.

وما يؤكد كذب تلك الدعاوى أن هذه الملايين التي ساهمت في فتح البلاد وتحريرها من نير الرومان، كان لهم دور رئيسي في المحافظة عليها من الأخطار الخارجية التي كانت تتهددها باستمرار، فقد ذكر الكندي: "أن مواحيز مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة، وكانت أحباس السبيل التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة فإذا جاء شهر





أبيب فرق القاضي أموال السبيل التي جمعت من الأحباس على المطوعة"[١] اهـ.

المراد بالمواحيز : هي الأماكن التي بين المسلمين وبين العدو.

والمراد بأهل الديوان: أصل الجيش حيث كانت تكتب أسماؤهم في سجلات عرفت بالديوان. وكانت أعطياتهم من الخراج والجزية.

أما المطوعة أو المتطوعون: فهم أهل البلد الذين يقاتلون مع الجيش، وكانوا لا يكتبون في هذه السجلات (الديوان)، وكانت أعطياتهم على حسب ما ذكر الكندي من الأحباس (الأوقاف).

أما الأحباس: فهي ما يوقف من أرض وعقار ونحوه، فيجعل ريعه (عائده) للنفقة على الجند وغيرها من أمور الخير، وهي ما عرفت بالأوقاف.

ومن هذا النص الذي ذكره الكندي تعلم عدة أمور، منها أن أهل مصر قد قاموا بالدفاع عن بلادهم بعد فتحها، وهذا ليس سلوك المكره، وإنما مسلك المحب الراغب.



---

(١١١) الولاة والقضاة ص (٤١٨-٤١٩) للكندي.



الثانية أن الكثير من أهل الأموال قد دخل في الإسلام، وإلا فمن أين أتت هذه الأحباس والأوقاف؟ ثم إن الواجب في الإسلام هو الزكاة، والزيادة على ذلك إنما هي تطوع لمن شاء، والمكره لا يتطوع وإنما يتثاقل حتى عن أداء الواجب. فما بال هؤلاء قد سعوا للجهاد بأموالهم؟. فما الفقراء هم الذين أسلموا وحسب، بل كان معهم الأغنياء يدل على هذا ما وجد من إيصالات كانت تعطى لمن تؤخذ منهم الزكاة، وقد وجد أحد هذه الإيصالات ضمن وثائق البردي المكتشفة[1]، فهل يهرب الغني من دينارين، ليدفع زكاة تفوق هذا، ويحبس أموالا لله؟!!.

ويكشف لنا المقريزي المزيد عن دور المطوعة أو المقاتلين المصريين في ثنايا حديثه عن معركة ذات الصواري، والتي وقعت سنة ٣٤ هـ أي بعد تمام الفتح بإحادى عشر عاما والتي قدم فيها الرومان بأسطول من ألف سفينة، وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو، وعلم من بعض المراقبين أن الروم أقبلوا في ألف مركب وكانت مراكب المسلمين مائتي ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين

[1] (١١٢) وأوراق البردي العربية لجروهمان (٣/ ١٧٥-١٧٦).

ظهراني الناس فقال: بلغني أن ابن هرقل قد أقبل عليكم في ألف مركب فأشيروا علي. فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم ثم قام ثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شيء فأشيروا علي.

يقول المقريزي : «فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال : أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾، فقال عبد الله اركبوا فركبوا»[1]. وقد انتهت المعركة بنصر ساحق للمسلمين. ولعل الذي أبطأ بعد هذا من سرعة انتشار الإسلام في مصر هو ما حل بالمسلمين من فتن، فما أن انتهى المسلمون من تلك الغزوة إلا وكان أمر الخوارج الذين برزوا على الخليفة عثمان رضي الله عنه قد ظهر، وما استتبع ذلك من فتن بدأت بقتله رضي الله عنه، ثم ما دار من حروب ومنازعات بعدها؛ كل ذلك حد من سرعة انتشار الإسلام في البلاد بين بقية قطاعات الشعب.

* * * * *

[1] (١١٣) المواعظ والاعتبار (١/ ١٩١). فجر الإسلام لسيدة إسماعيل الكاشف ص (٩٥) ، المقريزي (١/ ١٦٩).



# الباب الخامس

# الهوية المصرية هوية إسلامية

الفصل الأول : الباحثون عن الهوية.

الفصل الثاني : خاص لشركاء الوطن.



# الفصل الأول

## الباحثون عن الهوية

هذا وفي امتزاج المسلمون العرب بالمصريين بعد ذلك لهو عودة لنقاء العنصر، واستعادة لهوية لم تنل منها محاولات الطمس والتبديل، فمن شعب مصر كانت هاجر رضي الله عنها زوجة نبي الله إبراهيم وأم نبي الله إسماعيل وجدة نبي الله محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن نسلها جاء العرب، فمصر هي رحم العرب، أبناء ماء السماء، "فكل من كان من ولد هاجر يقال له : ولد ماء السماء لأن إسماعيل من هاجر وقد ربي بماء زمزم وهو ماء السماء الذي أكرم الله به إسماعيل حيث ولدته أمه هاجر فأولادها أولاد ماء السماء".[١] وهذا هو ما خاطب به أبو هريرة رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ. ولهذا مع ما سبق كان دخول العرب لمصر فتحًا وليس غزوًا وكان العرب أهل وأبناء أخت وليسوا بغرباء كالذين جاءوا عبر البحر. فمن يريد أن يفصل

---

(١٠٩) صحيح ابن حبان (١٣/ ٤٥).





مصر عن الإسلام، إنما هو يفصلها عن هويتها وعزها ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ أي شرفكم وعزتكم لمن عمل بما فيه.

ولذا فلو كانت العقائد يدان بها من أجل القوميات والوطنيات لكان الإسلام هو أول الأديان التي يجب أن يعتنقها شعب مصر. فقد أكرم الإسلام مصر والمصريين في حديثه عن هاجر، على عكس حديث المسيحية عنها إذ جاء في غلاطية (٤ : ٣١): "أيها الإخوة، لسنا أبناء الجارية نحن أبناء الحرة". ويعني بالجارية هاجر المصرية وبالحرة سارة رضي الله عنهما جميعًا.

فهذه الجارية المصرية رفعها الإسلام وأعزها وجعلها مثلاً يحتذى به جميع المسلمين، مصريين وغير مصريين، في قوة إيمانها. وأعزها ثانية حين جعل أفعالها من سعي بين الصفا والمروة، ووقوفًا على الصفا، ودعاء الرب جل وعلا، ورمي للجمرة منسكًا من مناسك الحج خامس أركان الإسلام.

وأعزها ثالثة بدعاء حفيدها لها نبي الرحمة محمد ـ ﷺ ـ بالرحمة، قائلاً: "يرحم الله أم إسماعيل". والذِكر بالكنية فيه تشريف أيضًا كما هي عادة العرب. فلو كان الأمر اعتزازًا بقومية أو انتصارا لهوية كما



زعموا، فأيهما أولى للمصريين: دين إبراهيم ودين الأنبياء جميعًا، الذي رضيه الله لهم وأعزهم به؛ أم غيره؟.

ولم لا ولله والحمد والمنة إذ كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم كما قال عز وجل :﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾. فمن يبحث عن العزة والشرف، فهذا هو موئلها.

يقول عبد اللهّ بن عمر عن مصر وأهلها أنهم أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامةً، وبقريش خاصة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



# الفصل الثاني

## وهذه خاصة لشركاء الوطن

فقد ورد في سفر التكوين وعد من الله سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يجعل من نسل هاجر المصرية أمة عظيمة، ففيه :"وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك"، وفيه أيضا :" ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، قومي احملي الغلام و شدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة "[١]. ووعده الله أيضا أن يملك الأرض التي يسكن بها إخوته من بني إسحاق عليه السلام، ففي سفر التكوين (١٦: ١٢) وطبقا للترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ جاء في حق إسماعيل عليه السلام: (بحضرة جميع إخوته يسكن). والمراد بالأخوة ههنا بنو عيسو وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهيم عليه السلام.

ولأن هذا الوعد كان معروفا لدى أهل الكتاب ومسلم به لدى

---

(١١٠) تكوين (٢١: ١٧، ١٨).






الأوائل منهم، فقد كانت إجابة هرقل حين أتته رساله النبي صلى الله عليه وسلم تدعوه للإسلام، وبعد ما سمع من شأنه، قال: "إنه سيملك ما تحت قدميه". وهذا هو حقيقة الوعد بأنه يسكن بحضرة جميع إخوته.

يذكر ساويرس بن المقفع أن : "هرقل رأى مناما وقيل له: إنه ستأتي عليك أمة مختونة وتغلبك وتملك الأرض، فظن هرقل أنهم اليهود." [١] اهـ فإذ هو على هذه الحال أتاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه للإسلام، فسأل عن العرب، فعلم أنهم مختتنون. وقصة اختتان إسماعيل وأبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام مذكورة في سفر التكوين. ولهذا كان هرقل يقاتل جيوش المسلمين قتال اليائس من النصر، الموقن بالهزيمة. وبمثل إجابة هرقل جاءت إجابة المقوقس (قيرس) بطرك مصر وواليها أنه: "سيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ها هنا" [٢]، فلذلك كان لا يحب قتال المسلمين، فقد علم أنهم موعودون من الله بالظفر على

---

(١١٦) سير البطاركة (١/ ٥٧٥).

[2] (١١٧) فتوح مصر وأخبارها (١/ ٥٣).





أعدائهم، ولذا تُراه يتهم بالخيانة في كتبهم. ولكن هذا الأمر لم يكن مقصورا على هذين وحسب، بل إن البطرك بنيامين نفسه قد تنبأ بهذا قبل الفتح الإسلامي بعشر سنوات فيقول ساويرس أن ملاك الرب خاطبه حين أتى قيرس واليا وبطركا لمصر قائلا :"اهرب أنت ومن معك، هاهنا لأن شدائد عظيمة تنزل عليكم، ولكن تعزَّ فما يقيم هذا الجهد إلا عشر سنين"[1].

ويبدو أن البطرك بنيامين كان موقنا بهذا فـ "مضى إلى الصعيد وأقام مختفيا هناك في دير صغير في البرية إلى كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب، وهي السنين التي كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر."[2] وهكذا تنبأ أيضا الراهب صموئيل القلموني بقرب الخلاص على أيدي العرب.

فضلا على هذا فإن الله لم يعد إبراهيم بأن يملك ابنه إسماعيل أرض جميع إخوته وحسب، بل وعده أيضا بأن يباركه ففي سفر التكوين (١٧ : ٢٠): (و أما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه و أثمره و

---

[1] (١١٨) تاريخ البطاركة ص (٥٦٩-٥٧٠).

[2] (١١٩) تاريخ البطاركة ص (٥٧١).



أكثره كثيرا جدا اثني عشر رئيسا يلد و أجعله أمة كبيرة). وهذا الوعد لم يتحقق في إسماعيل أو أحد من ذريته سوى بمحمد صلى الله عليه وسلم، فما كان العرب ذو علم أو حضارة أو لهم شأن يذكر حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ، فكانت تلك البركة بأن جعل خاتم الرسل من ذريته، فكان محمد ﷺ الذي تلألأت رسالته من جبال فاران التي هي مكة ، ففي سفر التثنية (٣٣: ٢) :( جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير و تلألأ من جبل فاران) والمراد رسالة موسى عليه السلام التي أوحى له الرب بها في سيناء، ورسالة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم رسالة محمد ﷺ التي كانت بفاران التي هي مكة.

فإن أرادوا نفي ذلك تمسكا بالترجمات التي جاء فيها أنه: (سكان بحضرة جميع إخوته)، وأن إسماعيل عليه السلام وأبنائه بالفعل سكنوا وأقاموا بأرض مصر في سيناء، وأن برية فاران هي بأرض سيناء، وأن البئر التي شرب منها إسماعيل عليه السلام هي بئر سبع، وبهذا فإن الوعد قد تحقق. فالبرغم من أنها ترجمات خاطئة يشهد على ذلك أن المؤرخين حين ذكروا قدوم العرب، أو تكلموا عن ظهور نبي الإسلام كانوا يصفونهم بالإسماعيليين، وأنهم أتوا من الجزيرة العربية أو من



الجنوب، ولم يقولوا أنهم أتوا من الغرب مثلا، أو من شبه جزيرة سيناء. فيقول مخائيل السرياني :" إن إله الانتقام ........... قد أتى من مناطق الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الروم"[١] ومخائيل هذا راهب شامي. ولو كان إسماعيل وأبناؤه سكنوا مصر على حسب تلك الترجمات، لقال: أتوا من الغرب لا الجنوب. وهكذا وصفهم يوحنا النيقوسي بقوله :" إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين". وكذلك كان يصفهم سعيد بن البطريق بالإسماعيليين.

وبالرغم أيضا من عدم انسجام هذا مع بقية ما جاء في الوعد من تكثير النسل، وجعله أمة عظيمة، والتسليم بأنه ليس المراد بالبركة هو النبوة والرسالة، والتغاضي عما جاء في سفر التثنية، بالرغم من كل هذا وتسليما لتلك الترجمات وليس تصديقا به لأننا لا نناقش ههنا العقائد ولا نبحث في الصواب من الخطأ. فتسليما لهوى تلك الترجمات وعلى حسب ما جاء فيها : فإن إسماعيل قد سكن مصر (برية فاران التي

---

(١٢٢) تاريخ ميخائيل السوري (٣/ ٤١٧).





بسيناء، وليست مكة) بل وإن أمه المصرية قد اتخذت له زوجة مصرية [١]

فعلى هذا فإن العرب المسلمين الإسماعيليين هم مصريون وأهل وطن بلا شك فلم تلك الضجة التي لا معنى لها؟، والقول بأن العرب غزاة، فإما أن قولهم هذا كاذب، وإما أن ترجماتهم كاذبة.

وإما أن يقولوا بأن العرب الإسماعيليين المسلمين مصريون خلص؛ وإما أن يقولوا : بأن الرب تلألأ من فاران التي هي مكة، وهذا لا معنى له سوى الاعتراف برسالة محمد ﷺ.

---

(١٢٣) (و سكن في برية فاران و أخذت له أمه زوجة من أرض مصر) تكوين (٢١:٢١).